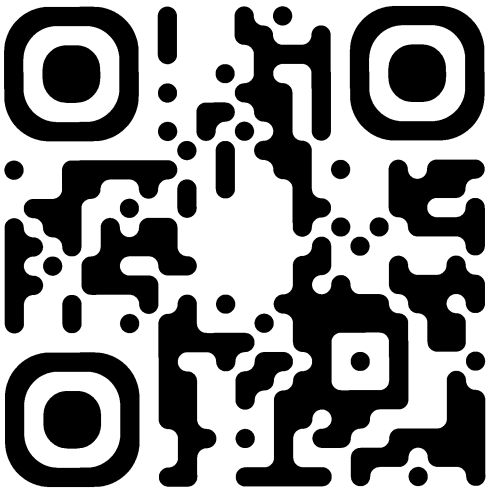

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(١٩٩٩/١٠/١٩٠٦)

رقم التصنيف : ٨١٣

المؤلف ومن هو في حكمه : ميسلون هادي

عنوان الكتاب: العالم ناقص واحد .

الموضوع الرئيس : القصة العربية .

بيانات النشـــر : عمّـــان : دار أسامة

*تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية.

طبع في مطابع الأرز ٠٥/٣٦١٠٠١١

العالم ناقصاً واحد

رواية قصيرة

ميسلون هادي

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار أسامة للنشر والتوزيع
الأردن ـ عمّـان

الناشر

دار أسامة للنشر والتوزيع

الأردن ــ عمّان

تلفاكس : ٤٦٤٧٤٤٧ ــ فاكس :٥٨٦٢٦٢٣

ص.ب ١٤١٧٨١

جميع الحقوق محفوظة

١٩٩٩م

١

الساعة تقارب الثالة فجراً ولم يكن قد غمض للأب جفن حتى تلك اللحظة وكأنه كان يتوقع أن يسمع، في تلك الليلة بالذات، تلك الطرقات الغريبة المقلقة التي بدأت خافتة مرتبكة في البداية ثم ما لبثت أن اصبحت اكثر قوة وانتظاماً.

أيقظ زوجته بيدٍ مرتجفة ، ثم قال لها وهو لا يقوى على الحراك :

– الباب .

فهبّت مذعورة من النوم وقالت :

مكتبة
t.me/soramnqraa

– سترك يا رب .

اشتدت ضربات الطارق على الباب، وكان الأب قد فقد قدرته على الحراك خلال ذلك بينما هرعت الأم وهي مدفوعة برعب لا يقاوم الى الباب وقد نسيت لأول مرة في حياتها أن تضع طاقم الأسنان في فمها قبل أن تفتح الباب لشخص غريب .

قال القروي :

– مساء الخير .

فقالت الأم بصوت مخنوق لا يكاد يسمع :

- أهلاً .

ولم تتفوه بكلمة اخرى .

بعد ذلك بنصف ساعة كان الرجل القروي يجلس في غرفة الضيوف وهو يتثاءب بين الحين والآخر ويتفوه بكلمات مقتضبة كانت أصعب مما يمكن جعلها مفهومة كما ينبغي :

قال :

- لا تقلقوا .

وقال :

- آسف لإيقاظكم في هذا الوقت المتأخر من الليل .

- لم أستطع العثور على سيارة أجرة إلا بشق الأنفس .

وقال :

- جئت من كلر .

وقال :

- لأدري بالضبط ... ولكن الأب مطلوب من الوحدة.

ولم تكن تلك الجملة الآخيرة التي قالها الرجل القروي صحيحة لأن الأب لم يكن مطلوباً من أي مكان، وليس للرجل القروي علاقة بوحدة الابن أو طبيعة عمله ولكنه كان، على ما يبدو، يؤجل ما يعرفه من معلومات صحيحه لحين الانفراد بالأب في السيارة وإخباره بالحقيقة كاملة . وبين دقيقة وأخرى كان الرجل يضع ساقاً فوق ساق وهو يشعر بالتوتر في جوفه يشتد ويشتد حتى وجد القدرة أخيراً على الافصاح عن رغبته في الذهاب الى الحمام بعد أن انتهى من كلامه، وترك الاثنين بتدبران حيرتهما بنظرات خائفة وغمغمات مبهمة لا تكاد تسمع .

قال القروي لنفسه وهو يجتاز المجاز باتجاه الحمام :

« الظلام شديد هنا » .

فكأنما سمع الأب كلماته تلك فناوله شمعة مشتعلة كانت موضوعة في غرفة المعيشة ثم مضى الى غرفة النوم ليغيّر ملابسه بينما بقيت الأم جالسة في مكانها لا تريم .

وضع الرجل القروي الشمعة على حوض الاستحمام ثم انصرف بذهنه الى نافذة صغيرة مفتوحة كانت تطل على حديقة المنزل الخلفية تتسلل من خلالها رائحة القداح بهبّات متموجة ولا تبدو،

بسبب الظلام الدامس، من أشجار الحمضيات التي تطلق تلك الرائحة غير أغصان سوداء متشابكة مصطفة بموازاة السياج الخلفي للحديقة . كانت الشمعة تخفق بشرار متقطع يكاد ينطفيء بسبب ذوبان الشمع، ولم يكن لهبها داخل الحمام يضيء بوضوح سوى جزء من مرمرة الحوض والحنفيات الموضوعة بقربها فحملها الرجل واستدار بها الى المغسلة ثم وضعها قرب المرآة لكي يستطيع أن يرى طريقه بوضوح وهو يغسل وجهه ويديه ويلقي نظرة سريعة على وجهه في المرآة .

خرج من الحمام على عجل وقطرات الماء لا تزال تبلّ وجهه ويديه، فوجد الأب واقفاً ينتظره بلا حراك تقريباً وهو بملابس الخروج والأم ملتفة على نفسها كالقنفذ في غرفة الضيوف وهي ما تزال حافية القدمين وقد بدت، ككل الأمهات، لائذة بأمل كاذب لتضليل وعيها عن رائحة المصيبة التي كانت تفوح من تلك الزيارة المفاجئة .

القى الرجل القروي نظرة سريعة على ساعة الحائط وقال :

– الخامسة ؟

قال الأب :

– الرابعة .

ثم أردف بصوت خفيض :

– لا أغيرها على التوقيت الشتوي .. فنحن لا نستعمل هذه الغرفة إلا نادراً .

التفت الأب الى زوجته وقال لها :

– عودي الى النوم .. وادعي الله أن يكون بخير .

وقبل أن يغلق الباب خلفه سقط نظره على الجدار المقابل للباب ليجد أمامه صورة قديمة جداً لفتاة جميلة بملابس الزفاف بشرتها كقشرة ثمرة ناضجة قطفت للتو .. نحيفة كأنها عود الخيزران ولا علاقة لها بهذه المرأة الحافية المتهالكة على الكرسي بلا حراك من شدة الهلع .

الصورة تبدو ككل صور الزفاف بليدة وكاذبة وأكثر تعاسة من هذا الفجر الكامد العقيم . كأنها صمت ونعاس ونباح كلاب وعويل زيزان لا ينقطع وأصوات شاحنات بعيدة تزيد من وحشة الليل بدلاً من أن تبددها ...

لا . لم تكن الصورة، كما بدت له في تلك اللحظة الخاطفة، ضحكة بلهاء مخدوعة بالأسنان الطبيعية والثمار الناضجة حسب،

ولكنها كانت رغبة شعواء لاثنين في الوقوف بثبات وقوفاً حافلاً ومرحاً وشديد الصعوبة حتى لا يسهوا فتسحبهما الأرض الى أسفل.

٢

كانت السيارة تبتلع الطريق بسرعة ، ورائحة الهواء البارد مختلطة مع رائحة البنزين المحترق تدوّخ الأب وتجعله يحس لأول مرة في حياته أن الفجر يمكن أن يكون غامضاً ومخيفاً الى هذه الدرجة . مرت لحظات خاطفة كالحلم تذكر فيها دهاليز الاهرامات التي تؤدي الى المقابر الملكية أيام كانت مفتوحة للسائحين في السبعينات ... كان ابنه «علي» في السابعة من عمره يومذاك وكانت كفه الصغيرة تتشبث بأصابعه وتعتصرها بقوة كلما اقتربا من تلك الغرف الفارغة المنهوبة، التي تفوح منها روائح الموت والرطوبة والعفن . تذكر الأب أنه فكر حينها بأن الخلود مخيف أكثر من الموت، ثم انتفض من ذلك الحلم فجأة وقال بعد أن كانت قد مضت أكثر من عشر دقائق على سماعه الخبر :

ـ أأنت متأكد من ذلك ؟

نطق الأب نصف الجملة وحبست الشهقة نصفها الآخر .

قال الرجل القروي وهو يفتح الحقيبة :

– وجدوا سترته وبداخلها هويته موضوعة فوق قبر في العراء، وقرب السترة مروحة طائرته السمتية .

تهدّجت أنفاس الأب ثم قال بصعوبة بالغة :

– ولكنهما اثنان في الطائرة .

قال الرجل القروي وهو يستخرج السترة من داخل الحقيبة :

– السترة التي عثروا عليها قرب القبر فيها هوية ابنك .. ثم أردف بصوت متلعثم :

– على أية حال .. يمكنك أن تتأكد أكثر عند نقل الجثة.

في اللحظة التي سمع بها الأب كلمة «جثة» أحس بتيار لاسع من الحرارة يسري من رأسه الى القلب مباشرة، ثم راح ذلك التيار يلسع وجهه وأطرافه. وارتجف قلبه بعنف حتى ضربت دقاته سقف حلقه .

تمتم الأب :

– جثة ؟

ثم أردف وهو يريد لذلك التيار من الحزن الذي اخترق قلبه أن يهشمه تماماً :

– جثة ابني ؟

قال الرجل القروي وهو يسلّم الهوية الى الأب :

– نعم .

ثم أحس أن الصمت أصبح ثقيلاً جداً بعد ذلك التأكيد الحاسم فراح يدلق المعلومات التي يحملها مرة واحدة في بئر ذلك الصمت المظلم :

– يبدو ان طائرته السمتية قد تعرضت للنيران أو أن خللاً ما قد أصابها فسقطت في «كلر» . هكذا يقول أهل القرية، كما يقولون ان رجالاً لا يعرفونهم هم الذين دفنوا ابنك في مكان سقوط الطائرة بعد أن وجدوه ميتاً ... وانهم قد اسروا الطيار الآخر جريحاً .

قال الأب متسائلاً وكأنه يحدّث نفسه :

– كلر !؟

فقال الرجل القروي :

– انها قرية في السليمانية قريبة من الحدود الايرانية .

انتبه الأب لأول مرة الى أن لكنة الرجل لم تكن عربية سليمة، فسأله وهو ينظر الى صورة ابنه في الهوية :

– من أنت ؟ وكيف عرفت بذلك ؟

قال القروي :

– أنا من أهالي تلك المنطقة .. وزوجتي كانت موجودة عندما دفن اولئك الرجال ابنك ... لقد حصل ذلك على مسافة أمتار من منزلنا الذي يقع عند طرف القرية .. وقد احتفظتْ بسترته عندها خوفاً من أن تضيع أو يسرقها أحد، وهي تبكي منذ ذلك الحين وتقول ان أحداً يجب أن يذهب الى أهل الطيار ويخبرهم بما حدث، وها آنذا قد تمكنت أخيراً من المجيء لاخباركم .

قال الأب وكان الوقت لا يزال طويلاً أمامه لكي يفهم ويصدق ما حدث :

– ولكن وحدته لم تبلغنا بالأمر ؟

قال القروي بلهجة مواسية وكأنه يبرر للوحدة جهلها بالأمر :

– لاأدري ... ربما لم ينتبهوا الى فقدان الطائرة بعد أو ربما يعتقدون انها قد ضلت هدفها ... أو ربما تعذر عليها ذلك بسبب

تعطل الهواتف وانقطاع الاتصال بين المحافظات.

قال الأب :

- وكم مضى على ذلك ؟

قال القروي وكأنه لم يسمع السؤال :

- تعذر عليّ المجيء مباشرة بعد الحادث، ولكن عندما أعلنت أمريكا وقف اطلاق النار كان أول شيء فكرت به هو المجيء اليكم واخباركم بالأمر .

سأل الاب مرة اخرى :

- كم مضى على الحادث ؟

قال القروي :

- ثلاثة أسابيع تقريباً .

ليس وقتاً كافياً لجيوش الدود كي تأكل ابنه وتنخل احشاءه .. ومع ذلك عندما فتح الحفار قبره وجد الأب نفسه امام وجه غامق مدمّر وممحو وملابس عسكرية بقّعها التراب والرطوبة .. كان الوجه قد أصبح مزيجاً من التراب والدم .

وكانت نظرة واحدة طويلة اكثر بكثير مما يتحمله الأب:

قال القروي :

– يبدو انه كان حياً عند سقوط الطائرة ... وحاول أن يرفع رأسه فضربته مروحة الطائرة .

غاص قلب الأب في كهف مظلم وعميق ثم تصاعد دخان كثيف امام عينيه جعله يشعر بدوار خفيف . حاول أن يسترجع نفسه لوهلة قصيرة كي يعيد النظر الى الجثةالتي أمامه ويتأملها جيداً مهما سبب له ذلك من ألم ، ولكن حفار القبور الذي أدرك محنة الأب وعذابه قال مستدركاً الأمر :

– أين التابوت ؟

فاستدار الأب مبتعداً على الفور باتجاه الصبية المتجمعين على مبعدة من القبر ثم تابع السير على غير هدى باتجاه صف قريب من بيوت رثة البناء طراز نوافذها التي أكلها الصدأ شبيهة بقضبان الزنازين الحديدية ... كان التراب أمام تلك البيوت يتطاير مع كل سيارة تمر، وفي مداخل البيوت تقف نساء حزينات بأنوف طويله وجباه ضيقة يلفعن أطفالهن على اكتافهن ويتطلعن إليه بصمت .

تطلع الأب الى تلك المنازل المتراصة في العراء ، ورائحة الجثة لا تزال تملأ صدره وملابسه والهواء الذي يحيط به .. رفع يده ليسند بها رأسه فانتقلت الرائحة من يده الى أنفه مباشرة فتح عينيه مرة اخرى على تلك المنازل فنغزت الألوان الفاقعة لملابس الكرديات معدته واستعصى عليه كبت ثورانها أكثر من ذلك .. تناهت إليه عاصفة من الغبار أثارتها سيارة مسرعة، فاقعى جاثياً على الأرض وتدلى رأسه بين يديه وراح يتقيأ .

مكتبة
t.me/soramnqraa

٣

رؤية الباب الموارب للبيت في الليل كانت أشبه بالنظر في شارع مظلم لا متناه يقود الى فناء البيت، وفي الوقت نفسه لا يقود الى أي مكان البتة . لا يوجد من يستطيع أن يحدث الأم الأن أو يمهد لها وقع المصيبة بكلمة أو اشارة أو تلميح ..

سيتكلم التابوت وينتهي كل شيء .

الأطفال فقط هم الذين فسحوا الطريق للتابوت بصمت وتهيب شديدين . أما الكبار فهاجوا وماجوا في الطقس المجنون والمطلوب لمناسبة كهذه .. وسرعان ما غص المنزل بهم، رجال الحي ونساء الشارع من اقصاه الى أقصاه...

جاءت واحدة بملابس مشقوقة واخرى بشعر منكوش وثالثة بصوت متفجع ، وصرخت كل النسوة اللاطمات بأسماء اولادهن ... وكل الأولاد شهداء .. وكلهم بعيدون ... وكلهم سيحضرون الآن في هذا العرس المأتم ... الصاخب الصامت .. اللائب اللاهب المجنون .

– كفّوا حالاً .. أسمعتم ؟

صاح الأب بصوت لم يسمعه الكثيرون ...

الأم وحدها هي التي سمعته ... سمعته وسكتت على الفور .. ثم راحت تنظر الى الأب نظرة غريبة فيها تقريع ولوم وكأن زوجها لم يكن سوى أب ظالم طرد ابنه للتو من البيت. نكس الأب عينيه الى الأرض وهو لا يزال يتذكر ثوران معدته في العراء ويحس بالخزي لذلك الفعل العضلي الذي أخجله . كان الضجيج يتعاظم حوله، ومع ذلك فإنه لم يكن يسمع سوى صوت مجداف بعيد يختفي داخل الماء ثم يظهر وكأنه قدر خفي لطفل يضع قدميه في قارب للمرة الأولى في حياته .

كان التابوت الذي أوحى له بتلك الفكرة ، لا يزال موضوعاً على الأرض في غرفة الضيوف ، والاطفال يتمردون على الأيادي التي تدفعهم للخارج ، وأصوات لا ترحم تطلب من الجميع مغادرة الغرفة :

– هل ارسلتم أحداً الى المقبرة ؟

– هل فتشتم ملابسه ؟

– هل اتصلتم بالجميع ؟

– شرشف للتابوت فقط .

– لا داعي للكفن ... الشهيد يدفن بملابس القتال .

– القرآن .. هل وضعتم الشريط في المسجلة ؟

– اخرجوا جميعاً .

– هل نفتحه ؟

– افتحوه .

– سيارتي جاهزة .

– لينتظر الجميع في الخارج .

– لا تدع أحداً آخر يدخل .. الأب والأم فقط .

– لا .. لتخرج الأم أيضاً .

أصبحت الأمواج التي تشقها المجاذيف ترشق الطفل برذاذها البارد الجارح ... وهو يتمتم بصوت خافت لا يسمعه أحد سواه :

– لو أدري ما جاي .

ثم استدار القارب استدارة خفيفة جعلت الماء يدخل إليه ويبلل

اطراف ثوب الطفل بالماء الذي تسرب الى القارب بفعل تلك الاستدارة الخفيفة .

ساد صمت مظلم وعميق .. وانتشرت في هواء الغرفة الرائحة نفسها التي داهمته بعد فتح القبر في «كلر» ... رائحة فطيسة متروكة على قارعة الطريق منذ عدة أيام .. بدت الرائحة غير محتملة للجميع فتعالت على الفور حوقلات وبسملات وغمغمات غير مفهومة ، ثم شق ذلك كله طلب جريء بإعادة غطاء التابوت الى مكانه بسرعة ، تبع ذلك الطلب صوت ضعيف كالذبذبة راح يتردد في رأس الأب بلا هوادة :

– علاّوي .. علاّوي .. علاّوي .

صوت كأنه صوته ولكنه لا يخرج من فمه وإنما ينطلق من بئر السلم لايقاظ النائم الذي فوق .. ثم صمت وجيز وتنطلق الذبذبة مرة اخرى .

– علاّوي .. علاّوي .. علاّوي .

– دعه ينم دقائق أخرى .

– لقد تأخر .. أيخرج بلا فطور مرة أخرى ؟

– علاّوي .. علاّوي .. علاّوي .

لا يعرف بعدها كيف تسرب ذلك الصبي ابن جارهم المحامي من بين تلك الجموع ليمسه في كتفه ويسأله بهدوء وحياء شديدين :

– عمو .. صحيح علاّوي مات ؟

عشر ساعات والأب يختلج ويرتجف بحثاً عن حزن يستحقه هذا الموت المفاجئ .. يبحث عن انفعال يستحق أن يُحس أو كلمة تستحق أن تقال أو نزال يستحق أن يخاض .

رفع الأب نظره باتجاه الصبي والدموع تتشكل في عينيه لأول مرة منذ أن سمع بالخبر وقال له بصوت مخنوق :

– أي بابا .. مات .

ثم انهار في بكاء مرير .. وانفجرت أبواب الحزن شظايا تناثرت في كل مكان .. وتهاوت جدران الرجال جدار ينهار يتبعه جدار آخر . وباب إثر باب إثر باب .. وأصبح نشيج الرجال جنائزياً وكأنه قادم من اعماق آجال الأرحام المسماة ومتصل الى يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت ..

لقد انهار الجميع في بكاء مرير ..وبدا واضحاً انهم يبكون الأب لا الإبن هذه المرة .

٤

وعند فجر اليوم الأول للعزاء وصل أول الزوار .. زائغي النظرات .. مرعوبين .. ويبحثون عن الأم حالما يدخلون الى البيت، وعندما يعثرون عليها يجلسون قبالتها ويمدون سياط الكلمات في جراحها الطرية المدماة حتى لا يغدو لها عينان لذرف الدموع . كلهم يتشابهون .. هكذا فكرت الأم، يشهقون الشهقات نفسها ويجعدّون الوجوه بالذكريات نفسها ويستمطرون دموعها بالطريقة نفسها وكأنهم يُسْدون لها معروفاً بهذا الصنيع .

بعضهم سمع للتو .. وبعضهم جاء من المحافظات البعيدة بعد أن تيسرت سبل المواصلات وتوفر وقود السيارات وعادت خدمات الهاتف والكهرباء الى العمل . وأقسمت امرأة عجوز أنها قطعت المسافة بين اليرموك وسبع بكار سيراً على الاقدام في خمس ساعات لأنها وجدت الناس (يتورعشون) سيارات الشحن والايفا العسكرية ويتكدسون في أحواضها الخلفية من أجل الوصول الى أية نقطة في الطريق بدلاً من الوقوف والانتظار طيلة هذه الساعات بلا جدوى .

بيد أنه منذ اليوم السابع للعزاء كف الأقربون عن ذرف الدموع وبدأ الأبعدون بالرحيل بعد حلول الليل مباشرة . أما الأبعدون جداً فكانوا لا يزالون يجيئون وهم ينظرون الى الأرض بحثاً عن بذرة كلام مناسبة يزرعونها في قلب هذا الحدث الجلل قبل أن يفارقوه على عجل .

وبدا للأم أن فجيعتها بدأت للتو بهذا الرحيل .. وان وجود هذا الحشد الكبير من الناس حولها كان يلهيها ويتركها في حالة من الاستسلام لتأثير مخدر قوي مليء بظلال اولئك الناس وايماءاتهم ووجوههم وثرثراتهم، وعريض الى درجة أن لا يبقي لفظاعة الواقعة إلا شريطاً ضيقاً وحاداً من اليقظة يروح ويجيء أمام الجميع بيد أنه لا يلذع أحداً مثلما يلذع قلب الأم . لهذا ربما راح الأخرون، ممتلين باللاشعور لقواعد اللعبة، يقطّرون لها تلك اليقظة جرعة بعد اخرى ويتسربون بالتدريج واحداً بعد الأخر من حولها ليتركوا خلفهم على الفرش الممدودة على الأرض فراغات واضحة تشبه فراغات الأسنان الساقطة في فم مفتوح .

بنات العائلة ومن تبقى من نساء الجيران والأقارب عملن على تعويض هذه الفراغات بزج الأم في ثرثرات جعلتها تبدو مهمة

وجادة عن تصاعد الأسعار وشحة السكر اللازم لعمل الحلويات والحاجة الى الاستعانة بالجيران لشيّ أرغفة الخبز وأمور من هذا القبيل مقصودة لمواساة الأم أكثر من قصدها مشاورتها فعلاً بتلك الأمور .. وفي اوقات الظهيرة عندما تتمدد الأم على واحد من تلك الفرش الفارغة تأتيها أصوات تلك التعليقات رحراحة وحنوناً .. لها صدىً خفيف يبعث على النعاس ويوقع في النفس مشاعر غامضة تترشح من الكلمات المتأسية ، ثم تترسب في قعر الروح واحدة بعد اخرى مثل قطرات ماء تتساقط في جوف إناء ساكن .. وعندما يتموج الهواء بتأثير الحرارة المنبعثة من المدفأة النفطية تغفو بعض النسوة من شدة التعب وكثرة الكلام وتنهض الأخريات لأداء صلاة الظهر المتأخرة فيحل في الغرفة صمت عميق يشبه وضع الأذن على بطن كأس فارغة، وتنعم الأم بلحظات وجيزة وغامرة من السكون المطلق .. حتى إذا ما جاء يوم (الأربعين) احتشد البيت بهن جميعاً مرة أخرى .. القريبات والبعيدات .. الغائبات والحاضرات ... ثم انفجر برمته شظايا متفرقة وهبط على فراغ .

ارتفع صوت مفاجئ امتلأت به باحة الدار قبل ان يمتليء اطار الباب الخارجي، الذي يطل على عزاء النسوة مباشرة ، بجسد

متأهب نحيف ومنتصب كالرمح . فتحت تلك المرأة عباءتها السوداء وهي تصيح باسم «علاّوي» الشهيد بايقاع متواصل فيه لوم وتقريع على الغياب أكثر مما فيه تساؤل واستفهام عن سبب هذا الغياب ، ثم بعد ان اصبحت أنظار النسوة كلها موجهة الى تلك المرأة الواقفة داخل إطار الباب أزاحت الربطة عن رأسها بضراوة وتركت شعرها الأبيض الناعم الطويل ينسدل على كتفيها وراحت تدق الأرض بقدميها وترقص رقصاً هستيرياً قرب الباب بينما تكوّمت عباءتها على الأرض وظلت متروكة هناك تحت قدميها .

خيّل للأم أنها تشمَّمَتْ رائحة برتقال خفيفة تنطلق من مكان خفي .. ثم تنهدت ذاكرتها عن صورة شابة نحيفة وضاحكة ترتدي فستاناً قطنياً عريضاً يتلاعب الهواء بأذياله .. تقطف برتقالاً يتدلى من أغصان دانية ثم توزعه على الأخريات وهي تتعابث وتضحك فتتقافز ورود فستانها القطني العريض وسط بستان مزهر وفسيح من بساتين بعقوبة المطلة على نهر ديالى . رفعت الأم نظرها في عيني تلك الزميلة القديمة التي لم ترها منذ عشر سنوات؛ وفي اللحظة التي التقت بها عيونهما أطلقت المرأة زغرودة طويلة ثم تقدمت الى وسط العزاء وراحت تهزج :

الأمر لله على اللي صار

هذي قسمتي من الله الجبار

يجيبوك بعلم ملفوف للدار

وتظل ذكراك تتردد بكل حين.

ترقرق الصمت داخل الغرفة من شدة ما حبست النسوة أنفاسهن حتى بدا المكان مثل هوة سحيقة تقف فيها تلك المرأة حافية في الفراغ فينعدم وزن أجسادهن المرصوفة على الأرض ولا يبقى غير رجع صوتها الأثيري الساحر وهو يلامس أرواحهن المذهولة بسلام :

عيون الله لأحبابي تراهم

بروحي سكنوا من بِعْدَوْا تراهم

كَربهم والبعد عني تراهم

بدليلي صار منزلهم سوا .

أحبابي بكلبي مسكنهم بعدهم

شبيدي عالوُكتْ عني بعدهم

دليلي ما هوى خلٍ بعدهم

أنوح بشوقهم والكلب ذاب.

ثم تهدج صوتها وتحشرجت الغصّة في صدرها فانسابت دموعها مدرارة وهي تواصل نواحها الذي سيظل منطلقاً من ذلك المكان الى الأبد :

فتحت الأم عينيها مرة أخرى لتجد الظلام قد هبط على الحديقة واشتعلت حدائق البيوت المجاورة بأضواء النيون البيضاء وراح الهواء يحمل لها روائح قلي خفيفة تنفثها ساحبات الهواء من المطابخ وأصوات أغان عالية كانت تطلقها ميكروفونات نادٍ في الجوار .

لم يكن قد بقي في المنزل أحد بعد انقضاء الأربعين ومن طلب منها أن يبقى شكرته بتهذيب ورجته أن يعود الى أهله وبيته ومشاغله . ومع ذلك ظل يتوافد على المنزل بعض الأقارب والأصدقاء راح عددهم يتناقص شيئاً فشيئاً حتى كاد يتلاشى وكأنهم جمهور ينفض بالتدريج عن قاعة غاصة حاشدة، ثم سرعان ما يتباعد وينصرف متفرقاً في جميع الاتجاهات ولا يعود يظل في القاعة أحد على الاطلاق.

ثمة ركن مظلل في حديقة الدار تحته جلس طيار جاء بملابس

القتال وفضل الجلوس في الحديقة عندما كان الكهرباء لا يزال مقطوعاً. قال لها :

– قسمته يا أمي .. اننا في الجبهة نقول أن القذيفة تنطلق وهي تحمل معها أسماء الذين سيقتلون بها ... ألم يجئه الموت من مروحة طائرته نفسها بعد أن اخطأته قذيفة العدو ... قسمته يا أمي قسمته ..

– ومحمود يا أمي ... كان علي يعرفه جيداً ... فلقد أمضى ثماني سنوات متنقلاً بين الجبهات من زاخو وحتى الفاو .. لم يترك بقعة حدودية لم تطأها قدماه ونجا من أخطر معارك تلك الحرب واشدها ضراوة ثم في يوم وقف اطلاق النار مع ايران يعود الى أهله في إجازة فيقتل في حادث سيارة.

– لكل أجل كتاب يا أمي .. لكل أجل كتاب .

ولم تعترض الأم على حكمة القدر .. إلا أنها لا تشعر بالراحة أيضاً وكانت تتساءل في سرها طيلة الأربعين يوماً المنقضية .. لماذا حصل لها ذلك ؟ .. ولماذا علي بالذات ؟ ... لماذا تسلقت لافتة الموت السوداء جدار بيتهم مثل بساط مشؤوم طالما كانت تراه على بيوت الأخرين وتعتقد أنه سيتسلق كل الجدران إلاّ جدران بيتها ..

أصبح نظرها بمواجهة غصن عنب تسلق جذع شجرة عرموط باسقة ثم استدارت مجسّات ذلك الغصن، ملساء دقيقة وبضة

وملتوية، باتجاه غصن آخر تسلق الأرجوحة فمدت تلك المجسّات الدقيقة نهاياتها اللولبية باتجاه الغصن الآخر (لتتورعشه) وتلتف عليه بالرغم من بعد المسافة بينهما وكأنما لتلك المجسّات عيون خفية ترى بها أحبتها فتذهب اليهم .

حمل لها الهواء أصواتاً قريبة لامرأتين تتحدثان في باب مجاور عن أحذية لأعمار صغيرة تريدان شراءها قبل العيد، ثم أطلق الميكرفون القريب أغنية تُعزف على آلات حديثة وتعلو وتهبط مع اشتداد وخفوت الهواء مصحوبة بتصفيق حاد واطلاقات نارية وصيحات ابتهاج .

يبدو انه عرس. فكرت الأم. ولكن أين زوجها؟ .. ولماذا لم توقظه من تلك الغفوة الطويلة التي امتدت به حتى الظلام ؟.. ارادت أن تنهض لتفعل ذلك ولكن ظلاً لرجل اقترب من الباب ثم تلكأ قليلاً قرب المنزل جعلها تصرف النظر عن هذه الفكرة. توقفت الأم قرب شجرة ورد أحمر وهي تتوقع أن يقرع الجرس في أية لحظة، وراحت تفرك بأصابعها اكمام الورد اليابسة دون أن تقطعها حتى تفتّتتْ وتناثرت اوراقها في الهواء وبقيت خويطاتها التي كانت تحمل البذور فيما سبق عارية ومفتوحة للجهات الأربع .

عاد الظل الذي ترك الباب قبل قليل وتلكأ قربها مرة أخرى ثم اشرأب بعنقه، شاب أسمر القى نظرة واحدة على الأم ثم عاد الى مكانه خلف الباب. توقفت الأم قليلاً عند الصورة التي انطبعت في عينيها عندما أطل ذلك الشاب بوجهه ثم اختفى ثانية خلف الباب. ملامح وجهه خطرت مثل شيء أليف وقريب ومحفور في الذاكرة .. تذكرت أن الكهرباء مقطوعة فهرعت الى الباب لتفتحه ولكن الشاب ابتعد على عجل وكأنه قد فوجيء بوجود أحد من أهل البيت في الحديقة وأحرجه هذا الوجود .

ارتجف قلب الأم بعنف وتهدجت انفاسها بلا سبب واضح وفتحت فمها لتنادي على ذلك الشاب المبتعد، الا أن الصوت لم يطاوعها ..

كان الشاب يمضي الى نهاية الشارع بثبات وكأن الخطأ الذي ارتكبه قبل قليل لا يعنيه، ولم تكن صورته في عيني الأم إلا عياراً نارياً اطلق بمفرده في ليل هادىء ليثير من الرعب في قلبها اكثر مما يثيره العيار نفسه لو انه اطلق في حومة قصف .

٥

تسقط الأصوات في الليل لتؤكد الصمت بدلاً من أن تبدده ، وتتسلل الاضواء الخافته من فتحات الستائر وفراغات السلّم لتؤكد الظلمة بدلاً من أن تمحوها ... أصوات لا أول لها ولا آخر تكون في لحظة من اللحظات غير موجودة لأنها لاتُسمع ، ولكنها تتضح فجأة عندما يخرج الأب رأسه من سطح الماء فينتبه إليها عدة لحظات قبل أن يغوص فيه مرة اخرى .

كل شيء في البيت يشي بآثار حياة (علي) لا بآثار موته .. وإن فعلاً قد انقطع من افعاله ربما سيكتمل في أية لحظة إذا ما تهيأت له أسباب هذا الاكتمال .. لقد عثر الأب ذات يوم وهو يخرج صندوق أدوات السيارة من تحت السلم على فردة ضائعة من حذاء ظل (علي) يبحث عنه طيلة ثلاثة أيام متواصلة . وقد قلبت الأم حينها المنزل رأساً على عقب ولم تعثر على تلك «الفردة» .. ولما يئست من العثور عليها طلبت من ابنها أن يبتاع لنفسه حذاءً آخر بنفس اللون والشكل .

يبدو الأمر للأب الأن كما لو أن «الفردة» قد ظهرت عن عمد

لأن علياً قد اختفى وانها كانت ستبقى مختفية الى الابد لو انه كان موجوداً .. وتبادر الى ذهنه خاطر غريب جعله يتساءل مع نفسه ان كان علي سيظهر من جديد لو ان هذه «الفردة» من حذائه قد انفقدت مرة اخرى .

بيد أن الأم بعد أن انفضّت مراسم العزاء وهياج الحزن ، كانت تتعثر بآثار حياة ابنها في البيت فتدرك بهذه الطريقة وحدها أنّه قد مات .. ذلك أن موت ابنها لم يكن يعني بالنسبة لها سوى يوم واحد فقط هو اليوم الذي رأت فيه التابوت يدخل المنزل محمولاً فوق أكتاف الرجال ثم يخرج منه محمولاً فوق أكتافهم أيضاً الى مقبرة . أما حياته فمفعمة وطويلة وزاخرة ، هي كل ما اخترنته ذاكرتها من صور وأحداث لألاف الأيام التي يمكن استعادتها في أية لحظة لأنها أصبحت تُلمس وتُحس وتُعاش بهذه الطريقه فقط وليس بطريقة اخرى . الأم مثلاً لم يكن يرضيها في السابق تشجيع ابنها على جعل طريق مطبخها سالكة لقطط الشارع .. ولكنها الأن عندما يقترب آذان الظهر تجلس منتظرة وعينها على باب المطبخ عسى أن تأتي واحدة من تلك القطط وتموء فينتابها احساس غريب ومريح بأن (علياً) موجود وغير ميت ... وان تلك القطط لم تكن تناديها بل

تناديه وان الأم إذا ما أدامت تلك الصلة معها فإنها تبتكر لنفسها طريقة لبعث ابنها من الموت الى الحياة وجعله ماثلاً أمامها كلما جاعت القطط .. أيدفعها جزعها الى اللعب مع الحزن بهذه الطريقة الغريبة .. أم أنها تتقصد أن تديم صلتها مع الحزن لكي لا تشعر بالذنب إذا ما تهاون قلب الأم في داخلها والتهى واستكان الى الصبر ؟ ... أيشبه ذلك رغبتها في الوقوف أسفل السلم والصياح بصوت عال باسمه ثم الانخراط بنوبة جديدة ومريرة من البكاء ؟

لا .. لم تكن الأم تراوغ الحزن أو تتملص منه أو ترتاح منه بالبكاء ، بل كانت تشعر ، دون أن تدرك ذلك بالضبط ، ان موت ابنها يبدأ بنسيانه وانها تجعله حياً مادامت تتذكره .

الهاتف أيضاً دخل هذه اللعبة فور عودة الخدمات الهاتفية التي عطلها القصف ، الى البيوت ، فقد انتبه الأب ذات يوم الى أن الهاتف إذا انطلق بجرس مفرد ثم سكت وتبعه جرس متصل فان الخط ينقطع بعد رفع السماعة ..سأل زوجته إن كانت هذه الاشارة الهاتفية قد حدثت في حياة (علي) فأجابته بالايجاب ثم انخرطت بالبكاء ... ايقظه هذا النداء من الغفلة فجأة ووضعه في قلب المأساة

الأسود . ان تلك التي تخابر وتُغلق السماعة لا يبدو ان احداً قد اخبرها بأن حبيبها قد استشهد .

تلكأت الأم اكثر من مرة عندما كان الأب موجوداً في البيت واحتارت كيف تجعله يفهم رغبتها في ابقاء ذلك النداء قائماً لأطول ما يمكن من الوقت .. بيد أن الأب كان يصر على ان تستمهل هذه المتحدثة المجهولة لحظات لعلها تصغي وتكف وتبتعد .. كان يطلب منها أن تبتر هذا النداء .. أن توقفه .. وأن تقتل فكرة موجودة في خاطر أحدهم بأن ابنها غير ميت . ان الأمهات غالباً ما يبعدن حبيبات الهاتف عن ابنائهن الأحياء بابتداع شتى الوسائل والأعذار فكيف يطلب منها أن تفعل الشيء نفسه مع ابنه الميت وتبعد عنه ظلاً من ظلال الحياة يسفحه ذلك الهاتف كلما انطلق رنينه في أرجاء المنزل .

قال لها :

– لا افهم لماذا تجعلين من الساعة الخامسة كل يوم وقتاً لتعذيبنا كلينا .. وهذه التي تتحدث ما ذنبها لتتعذب اكثر من ذلك؟ لماذا لا تخبريها وينتهي الأمر ؟

واحتارت الأم بماذا تجيب .. وكانت تعرف انه لا يفهم لوعة قلب

الأم في داخلها لأنه رجل .. وأنها تتمنى لو أن هذه المتحدثة المجهولة تظل تزول رقم هاتفهم الى الأبد دون أن يخبرها أحد بالحقيقة .

قالت له :

– لا .. لن أخبرها .

فقال الأب بنبرة غريبة فيها نكاية بنفسه اكثر مما فيها نكاية بالأم :

– ستكف هي من تلقاء نفسها ..

في الساعة الخامسة .. والخامسة دائماً .. تمتد يد الأم الناحلة وترفع السماعة وتهم باستمهال تلك الحبيبة المجهولة لكنها تختلج وتصمت ولا تغلق الخط الا بعد أن يكون قد انغلق من الطرف الأخر .. انها تستبقي النداء المجهول وتجعل ابنها حياً ما دام هذا النداء موجوداً وكان الأب يعلم ان القش كله سيتطاير في النهاية وأنه إذ يُنكر على الأم تشبثها بقشة أخيرة فذلك لأنه يعلم أنها لن تقدم أو تؤخر .

٦

النظرة التي تولّت عين الأب بعد شهر من دفن الابن كانت شيئاً محيّراً بالنسبة للأم .. أصبح الأب يدخل في نوبات ذهول طويلة ينفصل فيها عنها وعن الأخرين تماماً حتى لا يعود يسمع أو يرى أو يحس شيئاً على الاطلاق. كانت تلك النظرة تخز قلب الأم بالخوف والحيرة فتعمد الى أن تقطعها بأسئلة متلاحقة عن أشياء يومية تافهة قد لا تعنيها كثيراً ولكنها مقصودة لكنس ذلك الصمت المخيف بثرثرة متصلة . تشكو له، عن عمد، نقصاً في الخضار أو تطلب منه زرع عود جديد في الحديقة أو تروي له خبراً مشوّقاً من تلك الأخبار التي تقرأها في المجلات. بيد أنه كان يجيب باجابات مقتضبة ليصرفها عنه ويعود هو الى ذهوله التام.

ان تجربة واحدة في الموت لا تترك المرء مجرّباً بما فيه الكفاية وهنا تستدعي ، كانت تفكر الأم، النجدة من الخارج .. تأتي المواساة من صديق ومجرّب جرّب موت الأعزّاء اكثر من مرة ... يمتلك الخبرة المطلوبة التي لا توفرها تجربة واحدة من هذا النوع ... انسان قد رفع رايته البيضاء منذ زمن ويستطيع أن يعلّم غيره كيف يرفعها.

ان الموت الأول يشبه الطفل الأول .. يشبه حقلاً مختبرياً يحتمل كل التجارب الناجحة والفاشلة على السواء .. في الطفل الأول يرتكب الأبوان، ومن شدة الزهو، أشياء في غاية السخافة وأشياء أخرى في غاية الأهمية ولا يعودان لتشذيب تلك الانفعالات، وربما النظر اليها بخجل، الا مع تقاطر الأطفال وتراكم التجربة .

في الموت الأول، ومن شدة الحزن هذه المرة، يقع الأبوان بالاخطاء نفسها التي لا يحتاج تشذيبها الاّ الى تقاطر الأموات.

جاء الصديق الذي استدعته الأم لهذه المهمة فانتشل الأب من تلك النظرة كما يرفع كتاباً من الرف ، ثم خرج واعاده الى تلك النظرة كما يعيد الكتاب الى مكانه في الرفّ مرة أخرى .

كانت تلك النظرة تأخذ شكلاً مرعباً في بعض الأحيان .. تزوغ الى مكان غامض لا تستطيع أن تتبينه الأم أو هي مما لا يُسمح لها بالدخول إليه .. أية اعذار تلتمسها له الأم في هذا الصمت .. أليس هو ابنهما معاً؟ إذن لماذا يتخلى عنها ويلوذ وحده بهذه النظرة التي تجهل معناها وأسبابها ؟ قالت له الأم :

– أتذكر عندما كنا في الطريق بين بغداد والموصل وكان (علي) يومئذ في العاشرة من عمره ؟

- .....

- كانت الشمس تغيب وتختفي خلف الأفق .. وكان (علي) يطلب منك أن تسرع حتى نلحق بالشمس .....

- .....

- قلت له حينها ان اللحاق بالشمس وهي تغيب غير ممكن بالسيارة .. وانه يتطلب سرعة تفوق سرعة الأرض ليتحقق ذلك ..

- .....

- قال لك اتحققه ذلك إذن طيارة تفوق سرعتها سرعة الأرض ..؟

- .....

- قلت له نعم .. فقال لك إذن سأصبح طياراً عندما أكبر. كان الأب صامتاً لا يريم .. وكأنه غيمة شاردة عن سماء البيت ولم تتمكن الأم، بالرغم من كل ما تبذله من محاولات، من شد تلك الغيمة الى الأرض .

سقط نظر الأب على صورة ابنه المعلّقة على الجدار وتجمدت نظرته هناك عدة دقائق وهو يفكر برغبة ابنه (علي) تلك للحاق

بالشمس وهي تغيب .. كان يفكر بأن رغبته تلك تبدو كما لو انها دخلت العقل الالكتروني لهذا الكون كما يدخل أي «فايل» معلومات الى الحاسوب وبحفظ لحين مجيء أوان استعماله . ولابد ان تلك الرغبة قد خزنت هناك طيلة تلك السنوات حتى جاء أوان تنفيذها .. ثم فكر ان الشمس وحدها هي التي تغيب وتشرق من جديد في اليوم الثاني فجعله ذلك يشعر بعزاء غريب يبرق في روحه ويجعله يشعر بالراحة ولو الى حين .

قالت الأم :

– لماذا لا نذهب الى الموصل ؟

ثم اردفت بعد أن لم تسمع جوابا منه :

– لم نزر اختي منذ زمن .

ثم تثاءبت فبدا تثاؤبها للأب وكأن فيه لا اكتراث وقدرة على التكيف والنسيان .. تثاؤب يشي بالرغبة في النوم وضرب كل مصائب هذه الحياة عرض الحائط .

ان زوجته وهي تحاول أن تواسيه تبدو له احياناً امرأة غريبة عنه ، لم يعاشرها يوماً واحداً ولم يمض معها ربع قرن من الزمان ..

وتثاؤبها في تلك اللحظة بالذات أثار نفوره وجعله يرغب في نفيها عنه بأية طريقة ...

نكس نظره عن صورة الابن وقال لزوجته :

– ألن نتعشى ؟

ثم غاب مرة اخرى الى المكان الذي يبقى فيه وحيداً ويجعله أكثر ذعراً وحزناً وغربة .. غاب الى بئر الفكرة السوداء التي تراوده منذ الحادث وهو لا يعرف كيف أو الى أين يهرب من إلحاح ظلها الذي يلاحقه في يقظته ومنامه ويهيظ عليه أيامه بلا رحمة .

٧

يصل الأب الى مقبرة الكرخ كل مرة كما لو أنه يصلها لأول مرة ... تنبثق في رأسه على الفور صورة المرة الأولى التي جاء فيها لشراء مقبرة خاصة للعائلة . ولم تكن المقبرة حينذاك مأهولة إلا بقبور متناثرة تظللها سيقان هائلة من أشجار اليوكالبتوس ، متقشر لحاؤها على الدوام وكأن وجودها في هذا المكان تناغم طبيعي من تناغمات الطبيعة مع نفسها . كان ذلك في العام الأول لبدء الحرب مع ايران ، وكان «علي» في الرابعة عشرة من عمره ولم يكن ليخطر على بال أحد ان هذا الطفل سيدرك حرباً أخرى ويستشهد فيها ليكون أول من يدشن مقبرة العائلة هذه .

إلا أن الأب عندما عاد اليها لدفن ابنه بعد عشر سنوات هاله أن يراها مدكوكة بالقبور التي تعلن شواهدها عن أعمار الذين أهَلُوها وكلهم بمثل عمر (علي) أو قريباً منه، حتى ليخيل للمرء ان الشهداء قد اصطفوا طيلة تلك السنوات في طوابير حاشدة تتقدم باستمرار باتجاه واحد وان الواقفين فيها لا يملكون من مصائرهم شيئاً غير اتخاذ أماكنهم المحتومة في هذا العراء الموحش البعيد .

انهارت الأم في اللحظة التي توقفت فيها السيارة قرب القبر وانكفأت على نفسها تبكي بلا هوادة وكأنها ترى القبر لأول مرة . سقطت عين الأب على الأوراق اليابسة المتساقطة حوله فأحس بها تعنيه أكثر من القبر نفسه وأراد أن يسأل زوجته في تلك اللحظة شيئاً ولكنه تراجع عن ذلك ومضى الى دلو الماء لكي يملأه ويغسل المرمرات التي غطاها التراب . فتح صندوق السيارة وراح ينظر في جوفها المظلم والانتباه يهرب منه الى مكان آخر .. لماذا فتحه ؟ كانت زوجته قد اصبحت قرب القبر تحتضنه وتبكي كما لو أنها فقدت ابنها للتو وأن اشبار التراب التي تبعدها عنه، دون أن تستطيع رؤيته او احتضانه، تشعل في روحها وجعاً ممضاً لا يرحم .

لماذا فتحه ؟ تناهت الى انفه رائحة حيوان ميت مرمي على قارعة الطريق ، وانتابته لحظة من الحيرة نفض رأسه بعدها ليتذكر السبب الذي فتح صندوق السيارة من أجله، ولكنه لم يعد قادراً على التذكر بل وجد أفكاره تغوص في وحل مليء بالديدان وبرد قارس يجمد الأطراف .. لماذا فتحه ؟

ولكن الظلمة العمياء الحالكة كانت تتواصل بلا نهاية ..

والكفوف الناحلة التي تحرك برشاقة السنابل قد تثقبت بفعل النهش المستمر للديدان والرطوبة ..

لماذا فتحه ؟

بل الأفواه التي اعترضت وسخرت وقهقهت وصرخت وغنّت وقبّلت قد حشتها الأرض الأن بما يكفي من الطين والطفيليات والأشنات والمياه الأسنة .

لماذا فتحه ؟

والجباه العريضةالنظيفة التي لم تشق التجاعيد فيها خطاً واحداً بعد قد انخسفت الأن على الرؤوس الفارغة المنخورة والمحاجر التي لم يعد يملأ تجاويفها شيء غير التراب .

لماذا فتحه ؟

وراح الأب ينفض رأسه بشدة وكأنه يتفادى حشرة لجوجة تنطح أذنيه بلا هوادة ... ثم انغلق الصندوق فجأة على صرخة عالية سقطت على اثرها بضعة اوراق يابسة من شجرة اليوكالبتوس التي تظلل القبر . انقطعت الأم عن البكاء وهي تلتفت مبهوتة الى زوجها وآيات القرآن لا تزال تتطاير من فمها ، ثم هبت من

مكانهـا مذعـورة وهرعت الى زوجها وهي تصرخ بهستيرية :

– لا عيني لا .. لا عيني لا ..

انطفأت شمعتان مشتعلتان بجوار القبر بسبب هبتها المفاجئة تلك، وقبل أن تصل اليه تعثرت بعباءتها وتهاوت على الأرض بينما الأب كان لا يزال منكفئاً على سيارته يضرب صندوقها برأسه ويبكي مثلما تبكي النساء.

٨

التفت الأب الى زوجته يريد الهرب من تلك الافكار التي تؤرقه وتتلف سكينة روحه، فوجدها تغط في نوم عميق وقد انحسر الغطاء عن رجليها وبانت قدماها العريضتان بمواجهته مثل حيوانين هزيلين بينهما وبين الموت خطوة واحدة . لقد أسلمها البكاء الطويل الى هذا النوم العميق وقد جعله ذلك يتذكر كيف أنها كانت اثناء القصف تقبع في مكانها هذا وهي تتحدث الى الله طيلة الوقت ثم تغرق في نوبات طويلة من البكاء تسلّمها بعد ذلك الى مثل هذا النوم الهانئ العميق الذي لا تنال منه الأصوات والانفجارات والهدير المتواصل للطائرات المغيرة طوال الليل .

قالت له ذات يوم :

– تقول جارتنا أن قريبتها وابناءها الثلاثة احترقوا داخل ملجأ العامرية .. انظر الى القسمة فهي تقول انهم ليسوا من أهل المنطقة ولكنهم عندما خافوا من البقاء في بيتهم بكرادة مريم أثناء القصف تركوه والتجأوا الى بيت عمة لهم في العامرية ، وعندما حدثت

الغارة خافوا مرة أخرى وذهبوا ليبيتوا في الملجأ وهناك كان أجلهم في المكان الذي اعتقدوه اكثر الأماكن أماناً ودفعاً للأجل .. تقول أيضاً ان الممرضة الوحيدة التي كانت تنام قرب باب الملجأ ونجت من الحادث، كانت تسمع طوال الليل بكاء المحتجزين وراء تلك الابواب التي اقفلتها قوة القصف، وان ضربات ايديهم على تلك الابواب لم تتلاش تماماً الا قريب الفجر عندما تمكن الاطفائيون من فتح الابواب ليجدوهم وقد تحولوا الى لحم ذائب محترق .

انها على الأقل تتلهّى بحكايات الجارات الصديقات .. تجد فيها السلوى والعزاء .. ستمضغ اذناها المفتوحتان على الدوام ككل آذان النساء هذا الكلام وستتلهى به وسيتحول جزعها مع مرور الأيام الى حزن ويضمحل الحزن الى نوبات من الألم حتى يؤول الى الأسف وغيره . انها على الاقل تلوذ بمسلّمات كثيرة تمنحها الراحة والسلام وتعينها على احتمال ما قد أصبح خسارة أكيدة لن يعوضها أي سلوان .. تؤمن بأن قد مات لأنه من أهل الجنة وتؤمن بأن روحه ستحوم حول البيت أربعين يوماً بعد موته وتؤمن بأنها يجب أن تشعل له الشموع وتحرق البخور عند كل غروب لأن ذلك يضيء له عتمته ويعطّرها .. تؤمن بما تؤمن به كل النساء وتستعرض كل يوم

أمامه تاريخاً بأكمله من الطقوس والمسكّنات لا يدري من علّمها إياها وأين ومتى .

بعد انقضاء الأربعين مباشرة تعلّقت بواحدة من مسلّماتها تلك فقالت له انها رأت علياً يطرق باب البيت ثم يمضي مسرعاً حتى توارى في نهاية الزقاق ، ثم قالت بعد ذلك انها تحلم به يطلب لحماً مشوياً وعصير برتقال، وأن عليها أن تحمل كل يوم خميس تلك الأطعمة الى الفقراء لكي يأكلوها بدلاً عنه .

ستصر أيضاً على أن يذهبا الى المقبرة قبل شروق الشمس لكي تستطيع روحه أن تلاقيها وأن لا يحول ضياء الشمس بينه وبين رؤيته لهما .

– اتهرب الأرواح إذا انتشر ضياء الشمس ؟

– نعم . تهرب .

– لماذا ؟

– هكذا تهرب .

ثم لا مناص بعد ذلك من الإذعان لرغبتها في حمل الشموع والبخور وشرائط القرآن المرتل وبطاريات المسجلة وحافظة الماء

وعلبة المناديل الورقية ووضع ذلك كله في سلتها الخضراء البلاستيكية والرجوع بالسيارة من المرآب .. تروب ... وتحط السيارة فوق اسفلت الشارع ويُسمع صوت ارتطام الأشياء ببعضها داخل السلة وهي تطلق الصوت نفسه الذي تطبقه كل مرة فيسأل نفسه ذات السؤال :

– لمن يذهبون ولمن كل هذا العناء .. ولماذا ؟

ويستأنف الوحش الرابض تنفسه من جديد .. ويمسك بخناقه ليرميه الى قبره المفتوح على الدوام .

هكذا رفع الأب رأسه أخيراً عن الوسادة وقرر أن يغادر الفراش.

٩

ارجوحته عاطلة عن الكلام ... شعرت بوحشته قبلنا فأصابها الألم وتخلخلت ثم توقفت ... كلما اردتُ المجيء بمن يعيدها الى حالها الذي كانت عليه .. تلكأتُ عن تصليحها وقلت : لم يحن الاوان بعد لذلك .. وليس الأن .. وفيما بعد .. الى ان انتهت يدها اليمنى المكسورة الى شيء سائب يربطه بجسم الأرجوحة خليط من الاسلاك والخرق والكلابات الحديدية . أربعين يوماً وهي تنظر الى ما حدث في البيت من هرج ومرج هبط خلالها الأطفال الى مولدِ صاحبه غائب، وعاثوا بها وبالحديقة لهواً وتخريباً، بينما امهاتهم لاهيات عنهم بالدوران في أرجاء البيت ليطبخن وينفخن بنشاط متزايد تارة، او بالتهالك فجأة على الأرض ليبكين ويلطمن بنفس النشاط تارة أخرى .

كان رتلاً من الأيام العصيبات وانقضى .. وعندما انتهى الرتل وخفتت الأصوات داخل البيت من جديد، غفت المرأة العجوز الوحيدة التي بقيت معنا، بعد أن ذهب الجميع، ثم قالت لنا قبل أن يسقط رأسها على كتفها وتنام أن قريبتها قد جاءها المخاض قبل أوانها

فرزقت بطفل ميت وان ثلاجة حفظ الموتى في المستشفى كانت عاطلة فطلبوا من أبي المولود ان يصطحبه معه الى ثلاجة البيت ويحفظه هناك حتى الصباح أو، إن شاء، يأخذه مباشرة الى المقبرة ويدفنه فيها ان وجد هناك من يساعده على ذلك .

في مطلع الشتاء الذي مر قبل عامين كنت قد طلبت من «علي» أن يزرع عود ياسمين في الحديقة .. فقال لي ان ورد الياسمين يحب وجه الشمس ويحتاج الى الكثير الكثير من ضيائها لكي ينمو ويعيش، واقترح أن يزرعها قرب الأرجوحة لكي تتسلقها بعد ذلك وتبقى تحت الشمس مباشرة فتتشبع بالضوء وتنجو من الموت .. وكان المفروض ان تزهر الياسمينة هذا العام، لأننا زرعناها أول العام، ولكن عندما اشتد البرد هذا الشتاء تجمدت الحياة فيها وتحولت أغصانها الى عيدان صفراء يابسة لا ترتجى منها حياة .. قال لي «علي» مؤكداً بعد موجة البرد تلك :

– ماتت الياسمينة .

فهرعت أتأملها عن قرب وألمس عيدانها اليابسة بأصابعي، وأنا أشعر بالحزن لأن موجة برد عابرة استطاعت أن تقهر عامين من صبر تلك النبتة وانتظارنا لعناقيد عطرها الأخاذ . مرت بشتائين قارسين

دون أن يصيبها الذبول ثم دهمها صقيع مفاجئ فقطع عليها طريق الصعود الى أعلى من أجل النجاة . يابسة تماماً كانت في آخر مرة ذهب فيها «علي» وانقطعت اخباره عنا، وعندما جاءت الطائرات الامريكية لتقصفنا في برد الشتاء، هجعنا وهدأنا داخل البيوت لحين أن ينتهي الضجيج ويسفر كابوسه المجنون عن صباح .. ولم يعد ممكناً تذكر أمر الحدائق او الشوارع او السيارات أو الأشجار أو البيوت أو أي شيء . أصبحت ذاكرتي مثل دروق ماء رقراق لا تُرى فيه غير حصاة واحدة .. هي خوفي على «علي» وانتظاري لحظة رجوعه .. وكنت لمجرد أن اشعر بالحاجة الى تفقد شيد آخر سواه، ينتابني الخمول ويأخذ منّي العجز الشديد كل مأخذ . ولكني قبل أيام وعندما كنت أغسل بلاطات المرآب قبل الغروب، وجهت خرطوم الماء اليها، كعادتي، لمجرد أن ترتوي ودون أن أمتلك الأمل الراسخ فعلاً بأن تعود اليها الحياة في تلك اللحظة أو في أية لحظة أخرى .. تركت فوهة الخرطوم عند قدميها وألقيت نظرة عابرة اليها قبل ان التفت لأمعن النظر في باقي الأشجار .. نظرة رمتني على الفور الى الأرض بفرح وجعلتني أقرفص في مكاني وأنا أهتف في سري ..

– ما هذا ... ؟

كانت أولى علامات الحياة قد ظهرت على تلك النبتة التي ماتت من البرد ، إذ تبرعمت ورقة صغيرة طرية خضراء لماعة من على فرع يابس من فروعها، وشقت لها بعناد طريقاً الى الضوء من بقايا حبل سري ارسلته الأرض الى تلك الساق الميتة فقدحت فيها الروح وعادت إليها الحياة .. نظرت إليها بذهول ثم صحت بفرح :

– لم تمت الياسمينة .

جاءت أم علي لتقتفي الأمر فنظرت الى الورقة الخضراء الصغيرة ملياً ثم دمعت عيناها وقالت :

– لا عشت بعدك يوماً ..

ثم رفعت رأسها باتجاه الباب وقالت :

– لقد قلت لك انني عندما كنت واقفة في الحديقة قبل أيام .. هناك قرب حوض ورد الجوري الأحمر .. رأيت أحداً ما كثير الشبه بعلي ينظر الى الحديقة .. ثم يمضي مسرعاً ويختفي في نهاية الزقاق .

ولم أعلق على كلامها بشيء .. أشحت وجهي عنها وأنا أريد الاحتفاظ بلمحة الفرح العابرة التي منحتني اياها نبتة زرعها «علي» بيديه ذات يوم وتورق الأن أمامي لكي أرعاها وأحميها وأرعها

تعيش بدلاً عنه .. أو أدعها تنضم الى ذلك الرتل الحاشد الذي ما انقطع يوماً عن المسير منذ ان ذهب «علي» وكتب عليه أن لا يعود . نهضت أمه تكفكف دموعها ثم جلست على حافة الأرجوحة وعادت تبكي من جديد .. هي أيضاً تريد لهذا الرتل أن لا ينتهي .. تريد أن تظل تلاحقه بوشائج خفية لا ترى .. وان تمر على تفاصيله قطعة قطعة، وجزءاً جزءاً قبل أن يريحها اليأس وتفرغ منه الى رتل آخر .. لا شيء في ذلك غير اعتيادي .. وهي المرة الأولى التي يصادفنا فيها مثل هذا القطار الأهوج الذي تبرق كل نافذة من نوافذه لوهلة ثم سرعان ما تختفي قبل أن يستطيع أي منا اللحاق بها أو النفاذ منها لوهلة، الى أي مكان آخر غير هذا المكان . لفائف الأرجوحة التي احتوت يدها المكسورة لم تستطع ان تجعلها تلتئم بالجسد القوي من جديد، ولكنها استطاعت أن تمنعها من السقوط فقط .. أصدرت صوتاً كالأزيز ، فنهضت منها الى خرطوم الماء الملتف على نفسه كالثعبان .. قطرات متباعدة كانت تتساقط من فوهته الى الأرض .. أدرت مفتاح الحنفية الى أقصاه وسحبت رأس الخرطوم قريباً من الأرجوحة وتركته قرب جذر الياسمينة .. يتدفق .

١٠

غرق الأب مرة أخرى في تلك النظرة الغريبة نفسها التي تتعلق بعينيه منذ الحادث .. نظرت اليه الأم وهي تضع له السكر في الشاي ثم أطفأت النار تحت بيضتها المسلوقة ونقلتها الى الطبق الذي أمامها على المائدة .

قال الأب وهو يرفع نظره من قدح الشاي الى زوجته:

– أتضعين ملابس علي الشتوية مع ملابسنا في الحقائب الشتوية!؟

توقفت أصابع الأم عن تقشير البيضة وقالت بصوت ضعيف يُسمع بالكاد :

– نعم .

أراد الأب أن يتوقف فجأة عما بدأه قبل قليل ، ولكنه أحس في اللحظة الأخيرة انه ليس ثمة مجال للتراجع .

قال الأب :

– أهناك بين ملابسه سراويل داخلية من النوع القطني الطويل !؟

قالت الأم ويداها جامدتان على البيضة تماماً :

– كلا .

قال الأب لنفسه «بل ثمة مجال للتراجع .. كل شيء يمضي الى نهايته .. فلماذا ابحث عن بداية جديدة» .

قالت الأم :

– لماذا ؟

قال الأب :

– لا شيء .. اريد أن ألبسها وقت البرد .

ثم أردف :

– افتحي المذياع :

نهضت الأم وكان قلبها لا يزال ينتفض واذناها تطنان والرؤية غائمة امام عينيها ، فأدارت مفتاح المذياع الموضوع فوق الثلاجة ..

قال زوجها :

– هاته الى هنا .

شعرت الأم بثقل المذياع على يديها .. وتخلخل الهواء في صدرها حتى أحست انه يمر من انفها الى هوة سحيقة ليس لها قرار.

وضعت المذياع أمامه فراح يعبث بقرصه ويتنقل بين الإذاعات بلا هدف : قرآن .. ثم غناء اوبرالي ثم لغط ثم تشويش ثم أخبار ثم غناء بدوي ثم قرآن .. أحست الأم بهلع شديد وغابت روحها في تلك الهوة السحيقة اكثر فأكثر حتى استقر الصوت على نشرة الأخبار من اذاعة بغداد .. كان المذيع يردد أسماء رجال ثلاثية واحداً بعد الأخر علي عبد الله اسماعيل، سمير وادي حمد، صالح حاجي ابراهيم ، طاهر حميد راضي، عبد الجبار كعيد محمد، عبد الحسين شريف حسن، عبد الرزاق طلعت عثمان، عبد الرسول عبد الحسين حسن، عدنان هاشم قاسم، كاميران عبد الله ابراهيم، شوكت نوري عثمان، صالح نجم سهيل .. سألت الأم :

– ما هذه الأسماء ؟

قال الأب بدون حماس :

– أسماء .. دائماً أسماء .

ثم أراد أن يدير القرص على إذاعة اخرى فقالت الأم :

– دعها ؟

– ماذا ؟

– اتركها لنسمع .

ربما أسرى .. وربما وزراء .. وربما مفقودون .. وربما شهداء .. وربما أعداء .. وربما أصدقاء .. ماذا سيهم الأب مما يذيعون وهو الذي انزرعت بذرة الشك في نفسه ويريد أن يكشف للآخرين الفكرة التي تعذبه قبل ان يتحول هذا الذي رآه الى وهم وربما يختلط في ذاكرته مع فتات الذكريات وتخبو جذوته شيئاً فشيئاً حتى ينطفيء ويتحول الى رماد .

١١

حامت طائرة مروحية مدنية في السماء فانقبض قلب الأب على الفور، وتذكر أيام القصف كيف أقفلت البيوت على أهليها المنذهلين وتقاربت الأجساد لبعضها بعض وأينعت السماء لهباً أحمر وأخضر وأزرق ، ثم انتثر شرار الطائرات الصغيرة فوق الرؤوس لينذر بيوم كيوم القيامة .. كانت سحابة من الدخان الأسود قد اجتاحت بغداد، وتكاثفت في الجو غيمة عملاقة سوداء ظللت الأرض بلون قاتم وكئيب هو لون الدخان وطعمه ورائحته ، لمّتْ الريح شتاته من كل مكان حتى إذا ما انقضت الحرائق وانتهت أيام القصف الثلاثة والأربعون أمطرت السماء مطراً اسود لا تزال آثاره ناصلة سوداء وموجودة بوضوح فوق أسيجة المنازل والسطوح .

كانت تلك الذؤابات السود قد شوهت أسيجة المنزل، مع ذلك فالأب يشعر أن أوان طلائها لم يحن بعد .. أصبح كل شيء مؤجلاً في حياة هذا البيت بل أصبح معلقاً على مشجب لا يراه أحد سواه .. الشمس طيبة وحنون .. انها تمنحه على الأقل لذة النعاس وهو الذي لم يذق هناءة النوم منذ الحادث .. تململ داخل دشداشته

البوبلين الواسعة وهـو يبحث لنفسه عن وضع مريح داخلهـا .

صاحت الأم من داخل المنزل :

– أبو علي .. الغداء .

ولكنه لم يتحرك من مكانه وظل وجهه بمواجهة الشمس وعيناه مغمضتان . تناهت الى أنفه رائحة نار نج خفيفة تنبعث عادة من جسد زوجته وملابسها بعد الإنتهاء من الطبخ . قالت له :

– آآتيك بالطعام الى الحديقة ؟

قال لها وهو ينهض من الأرجوحة ثم يعتدل في جلسته:

– نعم . وهاتِ ايضاً السكائر وعليه الكبريت .

رفع ملعقة الطعام الى فمه ، وسألته زوجته سؤالاً لم يسمعه، وعندما أعادت عليه السؤال رفع نظره اليها بتثاقل ثم عاد الى الطعام من جديد .

قالت الأم :

– ألم تسمعني .. لماذا لا تجيب ؟

كاد يقول لها شيئاً .. أي شيء .. ولكنه تثاقل أيضاً .. ولم تعد الأم سؤالها مرة ثانية وإنما عادت الى الصمت لأنها اعتقدته مشغولاً

بالطعام ، بيد أن الأب كان مشغولاً عن زوجته باستعادة ما حدث مع نفسه .. كان يرصف ويقدم ويؤخر ويوازن ليخرج بالنتيجة نفسها : انه لم يعد يميز بين الخطأ والصواب ، وان عليه إما ان يترك التفكير بالأمر الى الأبد وإما أن يدعه لكي يخرج للآخرين ويعلموا به .

عدد الملاعق التي تناولها لم يكن يتجاوز عدد اصابع اليدين، مع ذلك شعر بالشبع وأراد أن يحدث زوجته بالأمر. كان يشعر بأنه خارج لتوه من بئر سحيقة مظلمة وان فمه سيحتاج بعض الوقت لكي يتآلف مع الكلام مرة اخرى .

طلب الشاي من زوجته فمضت الى داخل المنزل وهو يرى انها تتحدث إليه وإن لم يكن يسمع ما تقوله .

«ثمة أسباب كثيرة تدعوه لذلك . قد يكون اشتراه أو أخذه من أحد بسبب البرد القارس في الشمال . وان كان قد لفت نظري اليه لسبب من الأسباب فذلك لأني لم اعتد رؤيته وهو يرتدي هذا النوع من السراويل ..» .

أيعيد الأن تلك المحاولة التي انقطعت في الصباح ويحاول مرة اخرى أن يذبح وساوسه بالسكين مرة واحدة والى الأبد .. قطرة

واحدة من ماء ربما تطفيء جذوة الشك في نفسه وربما تثير رماداً يتطاير الى العيون ليدميها ويبكيها الى الأبد .

انتصبت زوجته أمامه من جديد وهي تحمل صينية الشاي في يدها.

رفع نظره إليها وهو يتكلم بصوت خائف :

– سألتك في الصباح ان كان ..

ثم صمت مدة وجيزة وهو ينظر استكاناً محدداً من الشاي ويراقب عوداً من تفالته وهو يطفو فوق سطحه .. تنهد بعمق وكأنه يزيح هواءً ثقيلاً من صدره ثم أردف :

– ألم يكن علي يرتدي واحداً من تلك السراويل القطنية الطويلة عندما خرج في تلك المرة الأخيرة من البيت ؟

توقفت الأم عن تحريك الشاي بملعقتها ثم خرج من فمها صوت جريح مرتجف كأنه لا يلوي على شيء :

– لا .. لم يكن يرتدي .

ثم ساد صمت وجيز تشبثت فيه الأم بفم زوجها كأنما تناشده لكي يحكم انشوطة الكلمات فلا يعذبها اكثر من ذلك .

قالت الأم وهي تستحثه على الكلام :

– علي لا يرتدي مثل هذه السراويل .. ولا يوجد عنده واحد منها .

– لماذا تسأل ؟

قال الأب :

– لا شيء .

انتفضت الأم من مكانها كالنمرة وهبّت واقفة وهي تصيح :

– ماذا تريد أن تقول ؟

قال الأب وهو ينظر الى الأرض :

– لا أدري ..

ثم فرك عينيه بأصابعه يده اليسرى وواصل كلامه :

– إنه لمن الصعب أن أخبرك بما رأيت .. الوجه لم يكن سليماً، ولكن الهيئة والجسم كانا واضحين ومألوفين بالنسبة لي .. شيئاً كأنه مؤكد بأن هذه الجثة هي لعلي .. ولكن بنطاله الممزق كان يكشف عن سروال دخلي ازرق اللون من النوع الطويل حال لونه وتلطّخ بالطين بسبب الدفن .. أمر لم أعره أهمية كافية في بداية الأمر لأني

كنت متأكداً بأنّ علياً : الجسم والرأس والشعر واليدين والقدمين ، هو الذي أمامي في الحفرة .. ثم ان أوراقه التي وجدت في جيب سترته فوق القبر جعلت الأمر كله مسلّماً به ، فلم أدقق كثيراً ولم اتوقف .. وحتى عندما أعدنا دفن الجثة هنا في بغداد لم يكن قد دخل روعي بعد هاجس أن تكون هذه الجثة للطيار الأخروليست لإبننا ... وربما كان قد دخل روعي دون أن أحس به لأني في اللحظات التي انهال التراب فيها على الجثة لاح لي ذلك السروال الداخلي الأزرق من جديد فانتابني شيء من الاستغراب عن السبب الذي دعا «علي» الى ارتداء هذا السروال وهو الذي لم يعتد على ارتدائه من قبل .

وجمت الأم في مكانها ثم تهاوت على الأريكة وهي تشعر بأن العالم من حولها ينشرح وأن لا أحد يستطيع اللحاق بذلك الشرخ ليوقفه ثم بدت وكأنها أصبحت خارج العالم تماماً في مكان لا يصلها فيه أحد . أصبحت الأم جامدة لا تريم وبالكاد قوَت على فتح فمها لتقول :

– لماذا لم تخبرني من قبل ؟

قال لها :

مكتبة
t.me/soramnqraa

- ذلك الاستغراب لم يكن إلا ذرة صغيرة جداً من الشك .. ذرة كانت أخف من أن اعطيها وزناً وأشغل الأخرين بها .. ولكن تلك الذرة ولأسباب لا أعرفها باتت تكبر شيئاً فشيئاً حتى أصبحت تلالاً تجثم على صدري وتؤرقني .. ربما أوحت لي المسافة التي لا عودة فيها الى تلافي الخطأ ، ان هناك ما كان يجب أن يُفعل ولم أفعله .. وربما لم يكن السروال الداخلي الأزرق موجوداً أصلاً ، وربما تخيلته وربما كان موجوداً فعلاً لأن علياً اشتراه تحت وطأة البرد الشديد في الجبال .. وربما أعاره إياه زميله ذلك الطيار الأخر بسبب البرد .. ربما .

في تلك اللحظة التي لن تنقضيَ من حياة الأم الى الأبد ، أغمضت الأم جفنيها على عينين جافتين تماماً ثم فتحتهما لتجد زوجها يجلس أمامها متكوراً داخل دشداشته البوبلين البيضاء وهو مطرق الى الأرض وكأنه قد اقترف ذنباً بحقها .. تخيلته ميتاً على الكرسي لشدة سكونه، ثم تململ بعد قليل واستوى ورفع نظره اليها من جديد وكأنه ينتظر كلمة واحدة تقولها ، إلا أنه وبمصادفة بحتة انطلق فجأة في الشارع صراخ طفل انقفل دونه باب البيت فظل يقف خارج البيت مرعوباً وهو يصيح بحرقة شديدة :

– افتحوا الباب .

انصرف ذهن الأم الى صوت ذلك الطفل الذي سمعته بوضوح.

– فنادت برأسها وهي تتمتم :

– اسوّد وجهي يوم .. عابت روحي عليك .

حدّق الأب فيها وهو لا يفهم ما تقوله .. فاتسعت عيناها من لهفتها على الطفل وصاحت بصوت أعلى :

– افتحوا له الباب .

ثم نهضت من مكانها وركضت الى الباب المسدود لتفتحه .. وهي تردد بلا انقطاع :

– اسم الله يمه .. اسم الله الرحمن ... اسم الله الرحمن .. مات امك يوم .. ماتت امك يوم .

كان بكاء الطفل قد اصبح اكثر حرقة ولوعة ويشي بظلم كبير لأنه متروك للفراغ والوحدة خارج بيته .. متروك للخوف العظيم الذي لا يرحم ..

عادت الطائرة المروحية التي حامت فوق البيت قبل قليل، لتطير بانخفاض سادر ، فانقطع بكاء الطفل وخوفه ولوعته وانخطف

وجهه الغارق بالدموع الى أعلى بحركة عفوية مفاجئة ، وما هي إلا لحظات حتى غطى صوت المروحة الهائلة على كل الأصوات ، وتجمدت الأم في مكانها وهي تغطي رأسها بيديها لئلا تدفعها الريح بعيداً ، وكان هذا المشهد هو آخر ما رآه الأب من مكانه في الحديقة قبل أن ينغلق باب البيت بفعل العصف الشديد لتلك الطائرة الهوجاء.

١٢

لم اشتبه بشيء في حياتي كلها ، لأني لم أكن لأهتم أو أعوّل على شيء مما سنشتبه به أو نعيد اكتشافه أن يتحول الى اسطورة ..

ولكني عدت من المقبرة وفتحت باب البيت وجلست بين الرجال احادثهم واتقبل تعازيهم وذهني شارد عنهم في مكان آخر .. انفضّ الرجال وجاء الليل وجرى ترتيب البيت لمبيت الغرباء وايواء المعزين، وقال جميع الجيران والأصدقاء والمعارف انهم سيجيئون كل يوم للإطمئنان علينا ، وهمست اختي الكبيرة بأن لا يتركوني وحيداً . ثم تملكني نعاس من شدة الإعياء فتمددت بملابس الخروج على فراش رحراح ممدود على الأرض وأغمضت عيني كي أنام .. ايكون الموت وحده هو القادر المطلق على اجتراح المعجزات أم ان الأشياء جميعها موجودة في دواليب الذاكرة وما على الموت سوى اطلاقها من القمقم ؟

كنت احدق خلل الظلام في الشاحنة الصغيرة التي حملت التابوت وهو في مؤخرتها يهتز مع حركتها ويرتج .. كنت اجلس

في المقعد الأمامي لسيارة تشيّعه احدّق عبر ضباب مظلم بارد وهو مهدور الوجه على هذا الخشب الرخيص وهذه الأرض الحديدية الصدئة . نظرت الى يدي فوجدتهما نظيفتين جداً وكأني خارج لتوي من الحمام .. وخاتم الزواج قد تزحلق قليلاً من مكانه حتى يكاد يسقط في أية لحظة لشدة ما أصيبت به اصابعي من هزال . لم يكن قلبي ينبض حينها وانما يرتجف .. وكانت أنفاسي تتلاحق مسعورة كأنفاس طفل خائف يبكي ولا يسمعه أحد.

كنت مأخوذاً مذهولاً بما يجري .. بما لا يجري .. بما يمكن .. بما لا يمكن .. بما ينبغي .. بما لا ينبغي .. عليَّ الأن يتناول الغداء .. علي الأن يغتسل .. علي الأن يودع السيارة في المرآب .. علي الأن يهبط السلم على عجل .. ولكن الشاحنة كانت تدوس الشارع وتمضي فتحدث في روحي ضلاماً أشدسواداً من الاسفلت .. لقد رأيته كيف ينهض من الشاحنة معترضاً على ذلك المصير الأسود .. رأيته يعترض على وجهه المبعثر الممحو ويريد ملامح وجهه التي انمحت مع ضربة الشفرة المروحية العملاقة .

رأيته يمد ذقنه الذي كان سليماً وحده ويقول لي .. تأكد يا أبي .. وكان ذقنه ملتحياً بشعر خفيف وناعم يشبه زغب الطفولة .. ثم

أصبح الوجه كله سليماً بعد ذلك وأصبحنا أنا وإياه وجهاً لوجه، وحدقنا بعضنا في بعض مدة طويلة .

وخيّل لي ان تلك المدة امتدت حتى أشرق الصباح .. نمت خلالها نوماً متقطعاً ثم حلمت اثناء النوم بجثة تسقط من الطابق العلوي فاتلقفها وهي ممحوة الوجه ولكن جسدها ساخن وزوجتي تنادي من فوق وتقول :

– لقد نسيتموه وخرجتم .. وها هو قد تأخر عن المدرسة .

ولما صحوت كانت الشمس قد تسللت الى أرض غرفة المعيشة وغمرتها بالنور ، وكان بقربي غرباء كثيرون نائمون .. رجال اعرفهم ولا أعرفهم .. بملابس البيت أو بملابس الخروج ممددين هنا وهناك .. ويغطون في نومهم بعمق كالأطفال .

كانت تلك اول مرة في حياتي أجد نفسي فيها نائماً مع غرباء .. وقد جعلني ذلك أشعر بالضيق في بداية الأمر . مع ذلك انتابتني، فور صحوي، لحظات وجيزة من الراحة زيّنت لي بأن ما حدث كان حلماً عجيباً وأن الواقع سيبدأ الأن .. ان ما جرى ويجري سينتهي حالما يعود هؤلاء الغرباء الى بيوتهم وتنتهي الفجيعة بتلك المغادرة . ومرت دقائق على هذا النحو هدأ فيها كل شيء من حولي وأنا على

حافة النوم أحاول أن استعيد شيئاً في اليقظة ولا استطيع . إلا أنني في اللحظة نفسها أحسست، وقد تذكرت ذلك الشيء بستار أسود سميك ينسدل على تلك اللحظات الوجيزة من الراحة ويدّمر تلك السكينة التي حطت على روحي مثل مصباح كان منوّراً فأصابته شظية فحطمته على الفور ليعم الظلام من جديد .

هل حدقت طويلاً ؟!

كنت بمفردي واثقاً من ان ما جرى ويجري سينتهي حالما يعود هؤلاء الغرباء الى بيوتهم وان معجزة ما ستحدث لتصحيح الخطأ . كنت أحاول وحدي اقتفاء اثر عطر يتضوع بعد أن رحل صاحبه .. كنت ابتعد بلا رغبة في المشاركة بهذا العيد الأهوج بينما كان البيت يبدأ استعداده ليوم جديد مملوء بأولئك الغرباء .. بصوت تلاوة القرآن العالي .. بأبواب البيت المفتوحة على البرد بلا رحمة .. يوم بلا صمت .. بلا زقزقة عصافير .. بلا صباح .. بلا ليل .. بلا عليّ .. بلا أي شيء .

١٣

اشتعل الضوء الأحمر فأوقف السيارة .. نظر في المرآة الجانبية فكانت تكبر داخلها صورة حافلة تقترب ، حتى إذا ما بلغت الإشارة الحمراء توقفت بموازاته . كانت كبيرة جداً مصبوغة باللون الخاكي وخالية من الرقم . اثارت انتباهه فالتفت ليتفحصها بنظره فوجد نوافذها وقد أسدلت ستائرها بحيث لا تكشف جزءاً ولو صغيراً عما بداخلها .. وانتابه هاجس غريب أربكه وشوّش الرؤية أمام عينيه، ان رؤية هذه الحافلة تبهظه وتجعل قلبه يهبط الى عز العدم . انه يشعر بتلك الغصة التي خلّفها رحيل عليّ راكدة في صدره تصعد الأن الى حلقه وتعود لتتكسر في صدره من جديد .

تحركت الاشجار بعطر هواء خريفي منعش فاهتزت الحافلة الخاكية الخالية من الرقم في مكانها ثم انطلقت الى جسر السنك تعبره باتجاه الكرخ ، وسرعان ما اختفت عن الأنظار .

الاهتداء الى بيت الطيار الآخر لم يكن بالأمر السهل .. ولكن ما كان أصعب منه بكثير هو افتتاح الكلام مع أهله حول الموضوع .. ماذا سيقول لهم وكيف وبأية وسيلة ؟ أيسألهم عن ذلك السروال

الأزرق الطويل ويطلب منهم بعد ذلك أن يقبلوا بأن ابنهم، ربما، هو الذي دفن في مقبرة الكرخ بدلاً من ابنه الأسير ؟ أية أم تلك التي ستقبل بهذا التقويض المفاجئ لأمل تعيش عليه باقي ايامها ؟

قال :

– ألم تتسلموا منه رسالة ؟

– كلا .

– مكالمة .. خبراً .. أي شيء ؟

– كلا .

– كيف إذن تأكدتم أنه في الأسر ؟

قالت أم الطيار الآخر وعيناها مغرورقتان بالدموع :

– لم نتأكد حتى الآن، فقد ذهبت بنفسي الى السليمانية اكثر من مرة وفي كل مرة كنت أعود بلا شيء تقريباً .

تدخل زوجها قائلاً :

– دفعنا آلاف الدنانير من اجل أن نحظى بالخبر اليقين عن ابننا ولكن كل من التقيناه لم يكن يعطينا سوى انصاف حقائق .. ولكثرة الذين أكدوا لي أنهم رأوه وقد اقتيد جريحاً الى الأسر لم أعد أثق

بأن أحداً رآه من الأصل .. أحدهم أقسم لي أغلظ الايمان انه رآه في مستشفى «كلر» .. وآخر قال انه سمع اسمه وقد اذيع مع اسماء الأسرى من اذاعتهم .. لا شيء مؤكد حتى الآن .

قال ابو علي :

– وحدته ماذا تقول ؟

قال ابو الطيار الآخر :

– لقد اعتبرته مفقوداً .. وتقول ربما يحتفظ به بعضهم الى نهاية الحرب ما دام طياراً .. يساومون عليه ويستعملونه ورقة للمفاوضات

ثم تنهد بعمق وأردف :

– لم يعد أمامنا الأن سوى أن ننتظر ونصدق انه أسير ما دامت جثته غير موجودة .

كاد (ابو علي) يقول له : ربما ...

وهو يريد أن يفتح موضوع الشك الذي يساوره في هوية الجثة التي دفنت قرب مروحة الطائرة في «كلر» ولكنه تراجع عن ذلك في اللحظة الأخيرة .

لاحظ (ابو علي) منذ الوهلة التي وصل بها الى بيت الطيار الآخر طرازه الشعبي من الخارج والذي لا يختلف عن باقي بيوت منطقة (علي الصالح) في الكرخ بشيء تقريباً، وعندما أصبح في غرفة الجلوس انتبه الى أن نوعية الأثاث الرديئة وهندام البيت من الداخل يتناقضان مع موديل السيارة الفارهة التي تقف في المرآب . هندام الأب أيضاً ينم عن هذا الذوق الشعبي في ارتداء الملابس : دشداشة رصاصية اللون يرتدي فوقها كنزة صوفية متهدلة وتحتها سروال قطني من النوع الطويل، أما الأم فكانت غارقة في الملابس السود .

ثمة ارائك في غرفة الجلوس مغطاة بشراشف مطرزة بخيوط حالت ألوانها من كثرة الغسل ... والسقف قد تساقط الجص من بعض مواضعه وتقشر الطلاء في أماكن أخرى بسبب الرطوبة .. والستائر نفسها تتدلى أيضاً، تلك التي ظل الحجّاج يأتون بها من مكة عدة سنوات حتى ملأت بيوت بغداد الشعبية بأرضياتها البيج البولستر وورودها الحمر العملاقة المتشابكة عند الحواشي . أما الوسخ على الجدران فقد عبّدته أيادي الصغار بطبقات لمّاعة يصعب إزالتها حتى اصبحت كأنها جزد اصيل من كساء الجدار .

استأذن ابو (علي) من أبي الطيار الآخر وهو لا يشعر بأية رغبة في إثارة السؤال الذي جاء من أجله .. كان البيت وأهله قد أعطوه الجواب .. فماذا يعني ذلك بحق الإله ؟ .. ماذا يعني تأكُّدُه بأن الطيار الجريح الأسير كان يرتدي سروالاً داخلياً من النوع القطني الطويل الذي يرتديه أبوه الأن .. أو ماذا يعني من منهما الذي في القبر الآن ومن منهما الذي في الأسر ؟ لم يعد يعني له تبادل مصائر الاثنين شيئاً ذا أهمية لأن الآخر ايضاً مجهول المكان وقد اخترع له أهله مصيراً وهمياً وتعلقوا به كما يتعلق بالغيب كل الفقراء والضعفاء والمظلومين .. اخترعوا له أسراً وعراً مثل كل امكنة الأسر الوعرة لا فكاك منها ولا طريق إليها إلا عبر الأدعية والأمنيات . فلماذا يريد اخراج ابنه من مصير مظلم وزجه الى مصير آخر اكثر جهامة وغموضاً وظلاماً ؟؟؟ لماذا يريد البحث عن البداية من جديد ما دام الاثنان قد انمحيا من الوجود بلمحة بصر وضاعا في المجهول الى الأبد ؟

تذكر زوجته فجأة وما ستطالبه به من أجوبة قاطعة تريحها من أشباح ذلك النفق المظلم الذي وضعها فيه زوجها فجأة .. نفض

الأب رأسه من ندم لم يعد يجدي نفضه ، ثم عاد مرة اخرى من الباب الى الباب وسأل اهل الطيار الآخر ان كانت لديهم صورة لإبنهم وهو بملابسه العسكرية .

انزرعت الدهشة في عيني الأبوين الآخرين وكانا منذ البداية يستشعران بأن الزيارة غير طبيعية وتفوح برائحة شيء مبهم يصعب تحديده . ومع ذلك فقد فسحا له المجال للدخول مرة اخرى ثم طلبا منه الانتظار لحظات . انطلق صوت بوق السيارة في المرآب فجأة وراح يملأ المكان بضجيج مزعج ، وعندما أصبح الصوت جحيماً لا يطاق أمر أبو الطيار الآخر حفيداً من احفاده بأن يذهب الى السيارة ويخليها من الأطفال ، ثم قال وهو يبتسم بصعوبة :

– لا أحد يقودها في البيت الآن .

وحك حلمة أذنه اليسرى ، فلاحظ أبو الطيار (علي) ان شحمتها مثقوبة وان خيطاً من الصابون قد تيبس بالقرب منها لأن الماء كما يبدو لم يصل اليه اثناء غسل الوجه، ومضى الأطفال في حركة منفعلة غير طبيعية تحوم حول الضيف الغريب وتناوره بابتسامات خجول، ولكن تلك الحركة توقفت في الحال عندما عادت جدّتهم

من غرفة الضيوف بعد لحظات وطلبت منهم الانصراف الى خارج البيت .

انخطف قلب الأب لدى رؤيته للصورة ثم تجمد في مكانه على الفور وشعر بدوار خفيف تنملت على أثره يداه وقدماه .

كانت الصورة كبيرة جداً يقف فيها الطيار الآخر بطوله الفارع وهو يرتدي بدلة الطيارين الزرقاء ويضع نظارة شمسية سوداء على عينيه . تمتم الأب بصوت مرتجف :

– علي ؟

فقالت له المرأة الملفّعة بالسواد باندهاش :

– لا .. منعم .

من بعيد .. لولا اطارها الخشبي المصنوع من خشب احمر مزخرف لقال انها نفسها صورة ابنه التي يضعونها في مواجهة مشابهة من غرفة الضيوف .

قال :

– انه يشبه علي كثيراً .

فقالت الأم وهي تكفكف دموعها :

– كل الطيارين يتشابهون .

ثم اقترب من الصورة اكثر وراح يُحدق فيها وقد تملكته رغبة بملامستها والمرور على سطحها بأنامله . قال :

– أين التقط هذه الصورة ؟

قالت الأم :

– في حديقة البيت .

من قريب .. كانت ملامحه اكثر حدّة وبشرته متيبسة قليلاً تشوبها سمرة ريفية ، وشعره افتح لوناً من شعر (علي) ، ولكن شُقرته تميل الى الحمرة، ومصفف بطريقة مختلفة عن الموضة السائدة.

سأل الأب :

– ما مواليده ؟

– فقالت الأم :

– ١٩٦٥ .

فقال الأب لنفسه :

«الرتبة نفسها .. العمر نفسه .. والشكل نفسه أيضاً ؟؟!»

ثم قال لها بصوت عال وهو يعيد الصورة :

– يرجع بالسلامة ان شاء الله .

ثم غادر الغرفة الباردة جداً على عجل ومضى الى سيارته وهو يحسّ احساساً غريباً وجارفاً بأن نمو الأحياء أخذ يتسارع فجأة حتى اصبحوا أمواتاً في عينيه .. ثم تسارع أكثر فأكثر حتى تساوى الجميع في الموت ثم اكثر فأكثر حتى أردى بكل شيء الى الفناء .. وعندئذ أحس بأن انتزاع مزقة لحم من مملكة الاشلاء الأرضية هذه ليس شيئاً بذي بال وبأن تبادل المصائر لم يعد يعني شيئاً ذا أهمية لأي من الاثنين وان عليه أن لا يعود الى هذا البيت مرة اخرى ويطوي الموضوع بأكمله مرة أخيرة والى الأبد .

١٤

عصف الهواء بشعره وانتشر الغبار خلال النافذة المفتوحة داخل السيارة فشعر بالإختناق، وراح الغبار يتكاثف بشكل سريع ويحيل السماء الى احمرار شاسع يقبض الروح والقلب .. تقول أجهزة الاعلام ان الدبابات واطنان القنابل الامريكية قد كشطت قشرة الأرض السميكة أثناء الحرب وان التراب الذي كان تحتها اصبح مكشوفاً تهيّجه الريح مع كل هبوب بسيط .

رفع زجاجة النافذة وهو يمر بالقرب من برج الاتصالات في المأمون فرأى عمال البناء وهم يقفون عند الحافات الشاهقة للبناء وكأنهم دمى صغيرة تحركها قوة خفية من بعيد . كان هذا البرج هو أول ما سقطت عيناه عليه من خراب صباح اليوم الأول من أيام العدوان .. في ليلة ذلك اليوم، يذكر جيداً، كان قرص الشمس قد أصبح كاملاً ومحمراً مثل جمرة دائرية منتفخة قد تنفجر في أية لحظة .

بعض الناس استرخى قليلاً بعد مضي يوم ونصف على الموعد الذي حدده الأمريكان انذاراً أخيراً للعراق للإنسحاب من الكويت

. وبعضهم هجر العاصمة الى الضواحي والمحافظات والأقضية تحسباً لكلمة قالتها دولة عظمى وربما لا تتراجع عنها . توقف أمام القرص الأحمر الملتهب وهو داخل سيارته يتأمل منظراً لم يسبق لعينيه ان وقعتا على مثله من قبل .. انتابته مشاعر غامضة بدائية أو هي جنينية تشبه اضطراب الجنين فور خروجه من رحم دافئ الى عالم شاسع ومليء بالغموض .. حدس لحظتها ان امريكا ستضرب لا محالة، ومع ذلك لم يشعر بأية رغبة في مغادرة بغداد الى أي مكان قريب أو بعيد .. أحسها قضية قدرية لا مفر من نتائجها ما دامت الأرض تقسمها المصالح والولاءات .. أحس أن لا شيء يمكن أن يحدث مصادفة أو يتكرر بالطريقة نفسها مرة أخرى .. وأن عليه وعلى الآخرين أن يكونوا شهوداً على ما سيحدث تلك الليلة .. ما داموا أحياء وما داموا قادرين على ذلك بالعين وبالقلب وباللسان .

ولم تكن ليلة كباقي الليالي ولا الذي حدث كباقي الأحداث ، هو الذي شهد الانقلابات والثورات والحروب منذ أن فتح عينيه على الدنيا لم يستطع أن يمنع قلبه من الارتجاف في اللحظة التي سمع فيها هدير الطائرات الامريكية وهي تشق سكون الليل فجأة لتحيله في غمضة عين الى جحيم متصل من الأصوات والانفجارات ، وتدك

الأرض بحمم متلاحقة من القذائف والقنابل والصواريخ . كان أول شيء فعله بعد أن قفز من فراشه على اصوات القصف الأولى هو أن أيقظ زوجته من النوم وراح يبحث عن أصغر السقوف ليضعها تحته .. هكذا كانت تعليمات الدفاع المدني قبل اندلاع الحرب ، ولكنه لم يفكر بها إلا في تلك اللحظة المجنونة الغادرة حين لم يعد بالإمكان معرفة مكان واحد يمكن أن يكون اكثر من غيره أماناً تحت قبة السماء المشتعلة بالنار والشرار ..

وبدت له اللحظة الكيماوية وشيكة جداً وسخر لحظتها من توجيهات الدفاع المدني بتهيئة غرفة مغلّفة بالنايلون تحسّباً للضربة الكيماوية المتوقعة ... ثم تذكّر كيف ظلت الأضوية مشتعلة في البيوت والشوارع اكثر من ساعة دون أن يبالي بإطفائها أحد حتى أطفأتها الطائرات الامريكية نفسها عندما ضربت محطات الكهرباء وعطّلت فاعليتها تماماً منذ الساعات الأولى لبدء الغارات .

لم تكن كمية البنزين لديه تكفي إلا للضرورة القصوى ، ومع ذلك فإن أول شيء تمناه بعد أن اعلنت صفارة الانذار انتهاء الغارة هو الخروج بسيارته والتجوال في بغداد للإطمئنان على «علي» بطريقة بدت له في تلك اللحظة انها ستكون من خلال الاطمئنان

على بغداد نفسها . لحقت به زوجته وترجّته أن لا يخرج في ذلك الوقت ، ولكنه أصر على الخروج والتخلص من ذلك السكون الشامل الذي أصبح يحاصره بعد انتهاء الغارة ويتركه بلا يقين تقريباً . كان ثمة نعاس عالق ببغداد وكأن عينيها قد استيقظتا للتو برغم ضراوة القصف طوال الليل .. هدوء الشوارع التام أسكره وملأته غلالة الدخان الذي خلّفته القذائف برائحة طازجة كأنها خارجة من فوهة مسدس أطلق رصاصة للتو .

لقد تلاشى عنده الاحساس بالخطورة الذي كان ينتابه وهو داخل البيت وأصبح يشعر بطلاقة من الحرية لا حدود لها وهو خارجه .

ولم يكن الخراب كبيراً بعد ، ولكنه استنشق رائحته منذ اللحظة التي وقعت فيها عيناه على برج المأمون للإتصالات فدمعت عيناه وخفق قلبه بشدة وانعطف الى الشارع التحتي الموازي لشارع البرج وهو يقود نفسه باتجاه غامض لا يعرف له وجهة محددة .

سار بين البيوت بلا هدف وتجوّل في أزقة لا يعرفها ، وكانت به رغبة في أن يحدّث أي شخص يلتقيه ويسأله ان كان بخير حتى حط به المطاف أخيراً قرب فرن للصمون كان مفتوحاً برغم القصف .. جفف دموعه بمنديل شديد البياض مكوي بعناية فائقة وجده في

جيب كنزته الصوفية ، ثم قرّب المنديل الى انفه وشم رائحة الكي فيه ثم أعاده الى الجيب وهبط من السيارة وهو يعلم أن لا فرصة لديه مهما كانت ضئيلة للحصول على الخبز في ذلك الزحام الشديد، ولكن رغبة جامحة اجتاحته في ذلك الوقت العصيب لكي يكون مع الناس وبينهم .

ثلاثة واربعون يوماً من الغارات المتواصلة تبدو له الآن كأنها لم تحدث أو انها قد حدثت ونسيها من شدة هولها .. أو انها كانت ثلاثاً واربعين ليلة بنفس الهول والشدة فاختلطت عليه الليالي لا يدري أياً يذكر وأياً منها ينسى ..

ومع ذلك فعندما رفع زجاجة النافذة بسبب الغبار ووقعت عيناه على عمال البناء وهو يقفون على الحافات الشاهقة التي نهضت من الخراب اختنق بذات الغصة التي خنقته صباح اليوم الأول من أيام القصف .. وبكى مرة اخرى من الحزن في المرة الأولى .. ومن الحزن في هذه المرة .. ومن القهر مرة اخرى .. وأخرى .. وأخرى .

١٥

لم يكن يملك جواباً محدداً لزوجته الواقفة عند الباب .. كان قد رفض أن تصاحبه الى بيت الطيار الآخر بالرغم من توسلاتها ودموعها .. والآن هو لم يرَ هلالاً في السماء على وجه اليقين فماذا بوسعه أن يقول لها ..

انحنت على نافذة السيارة وهو يدخل بها الى المرآب وقالت :

– ها ؟

ولم يرد

صاحت بصوت أعلى :

– ها ؟!

أطفأ مصابيح السيارة الأمامية وسحب مفاتيحها ونزل صامتاً لا يريم .. وقع نظره على علبة عصير فارغة مرمية في الحديقة ومدهوسة في الطين بين اوراق الاشجار المتفسخة الساقطة على الأرض .. فتملكه ذلك الإحساس السادر بفقدان الأمل ، بلا جدوى ما فعله ويفعله الآن وما سيفعله بعد قليل . لقد أصبح فجأة محاطاً بأسلاك

الأسئلة الشائكة مطالباً بإجابات كثيرة لا يعرف كيف يُدلي بها أو لماذا . شعر بذلك التثاقل الذي طالما انتابه في اللحظات التي يتطلع فيها الآخرون إليه ويطالبونه بأن يفعل شيئاً ما .. شعر بتلك الرغبة في خذلانهم وردهم خائبين .. حزين لأنه يدرك ان خسارته اكيدة ، وحزين لأنه يدرك ذلك متأخراً .. وكل شعور بالذنب من إدراكٍ متأخر داسه بقدمه إلا هذه المرة . حتى ابنه الوحيد لم ينتبه له بالقلب كما ينبغي ، وانما تركه يمر في حياته كما تمر الأشياء بحياد شديد ومسافة مناسبة .. وها هو الآن ينتبه اليه بعد مروره فيحاول اقتفاء أثره مثل عطر نادر وأصيل مضى صاحبه ولكنه ظل يتضوع بعده وقتاً طويلاً .. أيتعد الآن تاركاً قصته الأخيرة التي رواها لزوجته لكي تقلّبها وحدها فوق نار أبدية لاهبة لا تنطفئ ؟ أيقصّ جذره اللامبالي فجأة من الأرض ويعارض نفسه بشخص آخر يبالي ويتحمس ويهتم ويتفاعل ويتعاطف ولا يتقاعس ؟ بأي سكين يقص هذا الجذر ، ومن أين له بها من كان مثله متأهباً للرحيل في أية لحظة؟

وتمنى لو انه لم يتكلم .. لو أنه آثر الصمت .. وترك الموضوع بأكمله محبوساً داخل جدران رأسه حسب ..

قال وهو يشير لها بالدخول الى المنزل :

– ابنهم في الأسر .

ظلت الأم واقفة في مكانها وهي تبدو غيرواعية بعد لما يقوله زوجها ، ولكنه أنهى الأمر كله بجملة حاسمة واحدة :

– انهم متأكدون من ذلك .. لأنه بعث لهم رسالة من الأسر .

بدا وجه الأم المجهد بسبب البكاء ، وقد استرخى قليلاً وكأنما ستارة ما قد اسدلت على ذلك العرض المفاجئ الذي أثاره زوجها وان في انتهائه راحة خاصة واستسلاماً تاماً للقدر .

سقط نظر الأب وهو يهم بالدخول الى البيت على صورة (علي) التي تصدرت جدار غرفة المعيشة بدلاً من صورة زفافهما التي كانت في المكان نفسه . واجهته تلك الصورة مثل مصباح أضيء للتو ، فانتابه ذلك الاحساس المموه مرة اخرى بأن ما حدث يمكن تلافيه أو تصحيحه وان نهاية الاشياء لا يمكن أن تكون مفجعة بهذه الطريقة .

في ذات اللحظة وقفت الأم خلفه وهي تكفكف دموعها بذيل فوطتها ، فأحس الأب انه لا توجد رابطة شبه واحدة تربطه مع زوجته ، وان هذا الأمر الذي يعرفه منذ زمن لم يعد يقلقه ولا يضيره البتة «مولد ثم اتصال ثم موت، هذه هي الحقيقة الأخيرة عندما تدق المسامير في النعوش .. مولد ثم اتصال ثم موت» .. قول قرأه في

مطلع شبابه في كتاب ويتذكره بقوة حتى الآن .. التفت اليها وطلب منها أن تدخل الى المنزل إذ ازعجه أن تبقى خلف ظهره واقفة بلا حراك .

رفعت الأم نظرها اليه فحدق الأب طويلاً في عينيها بنظرة لم تفهمها الأم جيداً ولم يعرف الأب إلامَ ستقوده في اللحظة التالية . ثم فطن الى أن باب المرآب ما زال مفتوحاً ففسح المجال لزوجته كي تدخل الى البيت ومضى هو الى باب المرآب يغلقه .. مد الأب يده الى مقبض الباب ولبث ساكناً .. ظل يحدق في أشجار مزروعة على الرصيف المقابل البيت دون أن يراها فعلاً .. أحس بأن ذلك التحديق يأخذه من مكانه ويرميه الى الفراغ ولكنه مع ذلك يواصله بلا مقاومة .. انه لم يكن في الملابس العسكرية للجثة أي شيء يستدل منه على ابنه «علي» .. لا هوية ولا نقود ولا دفتر تلفونات ، وإنما جميع الأشياء التي وجدوها كانت موضوعة في السترة التي حملها الرجل الكردي الى بغداد .. هويته ورتبته ودفتر تلفوناته وآية الكرسي التي كان «علي» يضعها دائماً داخل الجيب الأيسر لسترته .. وكلها تعود لابنه «علي» . هذا صحيح .. ولكن من يعرف على وجه التحديد التام أو يجزم جزماً مطلقاً فيما إذا كانت تلك السترة

التي عثرت عليها زوجة الكردي قرب القبر والهوية التي في داخلها تعود الى الطيار الذي استشهد وليس الى الطيار الآخر الذي أسر ؟ أليس هناك شك محتمل وان كان ضعيفاً جداً بأن سترة الطيران هذه قد لا تعود للجثة التي وضعت فوق قبرها السترة .. وإنما تعود للطيار الآخر الذي يقولون أنه قد نجا ؟ حتى المرأة التي احتفظت بتلك السترة تقول انها لم تكن قريبة بما فيه الكفاية لتشهد عن من خُلعت أو كيف ولماذا وإنما كانت تراقب المشهد بأكمله مع الآخرين على مسافة أمتار ولم تتجرأ على الاقتراب من القبر إلا بعد أن غادر الرجال والأسير معهم فتقدمت لتجد تلك السترة كما تركوها تغطي كومة منخفضة من التراب هي المكان الذي دفنوا فيه الطيار الشهيد .. إذن، إذن لماذا افترض الرجل الذي سلّم له سترة ابنه وبداخلها هويته وقرآنه وأوراقه بأنها تعود الى الطيار الذي دُفن وليس للطيار الآخر الذي أُسِر ؟

هكذا انبثق الخاطر في رأس الأب من جديد .. وهكذا زلزلت هذه الفكرة كيانه مرة أخرى لتطبع لها موطيء قدم للأمل الحي الممكن .. هكذا انفتح القبر من جديد .. وسيظل هكذا فاغراً فمه في رأس الأب الى الأبد .

مكتبة
t.me/soramnqraa